



للعدالة وجوه فضليعة

مجموعة قصصية

للعدالة وجوه فظيعة..

عن الوجوه الأخرى للتحويلات البيئية في مدن البحر المتوسط

مجموعة قصصية

للعادلة وجوه فظيعة..

عن الوجوه الأخرى للتحويلات البيئية في مدن البحر المتوسط

مجموعة قصصية نتاج ورشة الكتابة الإبداعية لمشروع CAP'MED

التي نظمتها بانلاستيك مصر بالتعاون مع:

Les Têtes de l'Art

مؤسسة المجلس الشبابي المتوسطي

جراج الثقافة التابع لمعهد جوته بالإسكندرية

مؤسسة آنا ليند

تدريب وتحرير وتقديم

هبة خميس

تأليف

أكرم محمد

شيرين جمال عبد ربّه

عبدالله فؤاد

غادة الحسين

غيداء خالد

محمود قاسم

منار رمضان

يارا وائل

ياسمين مصطفى

رسوم: رنا أمين

تصميم الغلاف: ريم علاء الدين

المقدمة

بين حزن مزارع على فراق أرضه، وشعورٌ بالذنب يداهم صياد بطرق غير مشروعة، تفاصيل من مجتمعات قد تبدو للبعض مهمشة لكنها هي أساس كل مجتمع، وأكثر الأطراف التي تم الإضرار بها بسبب التلوث والنفايات.

تدور معظم قصص المجموعة عن مناطق لم يكتشفها الكثير من الناس وشخصيات مختلفة، تلك القصص التي بين يديك هي نتاج ورشة عملت عليها لمدة أربع أسابيع حول التوعية بمفهوم التحول العادل الذي تدور حوله نتاج الورش التابعة لمشروع CAP'MED وهو مشروع بالتعاون مع بانلاستيك مصر وبالشراكة مع مؤسسة Les Tetes del'Art والمجلس الشبابي المتوسطي بهدف نشر الوعي البيئي وتعزيز مفهوم التحول العادل باستخدام الفنون.

في خلال العديد من اللقاءات تمكنا من التعريف بفن القصة القصيرة وتحليل عناصرها، وأيضا الوقوف على أسباب جاذبيتها كفن أدبي محبب لكثير من الناس، وفي نهاية الورشة عكف كل مشارك على الانتهاء من مشروعه المتمثل في قصة قصيرة أو قصتين حول نفس المفهوم الذي بدأنا منه.

ربما تحول المفهوم في القصص بدلاً من التحول العادل تجاه مجتمع يتسم بالعدالة الاجتماعية والبيئية، لتحول غير عادل عن أناس تسلب منهم بحيراتهم بسبب الجفاف، وأمطار في غير مواسمها وغيرها من المشاكل المترتبة على ذلك.

هبة خميس

رحلة القطار

أكرم محمد

يطلق صفيره بقوة معبراً عما تحمله أحشاؤه من البشر، يذهب متقطع الأنفاس، ويأتي لاهثاً يجوب كل شبر يحمل من كل صنف ولون، وفي قرارة نفسه يحقد على سفينة نوح فقد كانت رحلتها مرة واحدة، أما هو لا يتوقف، عليه أن يصل إلى محطاته صامداً.

مكون من خمس عربات ملطخة بألوان الأبيض والأحمر والأسود من الخارج، بطريقة تعبر عن ذوق رديء خالية من كل فن وإبداع، حين تدخله تشعر أنك في يوم الحشر حيث تتزاحم على مكان لقدميك، تخرج رأسك من بين الأجساد حتى تستطيع الرئة أن تتنفس هواءً مُحملاً برائحة العرق والأجساد المتكدسة، أنظر إلى الشمس وهي تطلعنا وأقول لها:

- أي صباح هذا الذي تحمليه فوق رؤوسنا؟!

بعد قليل من الوقت، طرق شخص بجواري على كتفي بيده اليمنى بضع جنيهاً فضية، ومن بين أصابعه رزمة من الخمسات والعشرينات وغيرها، أحسن ترتيبها كأن يده خزانة البنك المركزي، واليد اليسرى تحمل تذاكر الركوب، يزين أذنه اليمنى قلم حبر فرنساوي كما تزين النياشين البدلة العسكرية تباهاً بمظهره فهو حاكم هذا القطار، بصوت خشن محشرج يتساءل:

- ما محطة نزولك؟

قبل أن أنطق، قطع تذكرة أعلى فئة بعشرة جنيهاً، وعلم عليها بالقلم وأعطاه لي، أردت أن أقول له لماذا سألتني طالما لا تنتظر الإجابة أو لماذا لم تنتظر إجابتي، لكنني أسلمت نفسي من سماع تلك الحنجرة مرة أخرى، وعلى أية حال لم يكن لي أي اختيار منذ الصباح أو بالأحرى منذ ولادتي.

استطعت أن أجد مكاناً لقدمي اليمنى بين الزحام، بينما اليسرى مازلت لا أجد لها مكاناً إلا فوق أقدام أخرى، وأقدام أخرى لم تجد لها مكاناً إلا فوق قدمي، لم يكن في مقدوري أن أغضب أو أحمي حذائي الأبيض من قذارة النعول... لم استطع.

وبينما أنا على هذا الحال مر علينا أكثر من بائع، فُرش الشعر ونظارات الشمس وجلدة الأنبوبة ومحافظ النقود، لا أعلم كيف يتجولون في هذا الزحام بين عربات القطار كأنهم يشقون الصخر نحو الرزق، من بينهم طفلة تحمل الجرجير واللفت وتنادي عليه ببراءتها العذبة.

- تعالى ودوق عشان تعرف أنت بتشتري ايه! اشتري اللي اتروى بالنيل مش بصرف البنى آدمين!

لا ينتهي البائعون ولا تهدأ أصواتهم، أي جيوب تستطيع أن تلبى نداءاتهم؟ أي حصيلة من النقود يمكن أن يعودوا بها؟ والسرقعة تعرف طريقها أولاً.

تتبدل الوجوه وتتغير الأجساد الملاصقة لي، إلى أن استقر بجانب شاب عشريني، أعدّه القدر بعناية وأحكم كل الظروف كي يقف إلى جوارى ممسكًا بهاتفه المحمول، ومتحدثًا بصوت مرتفع غاضب حزين:

- لن يذهب إلى مصنع الأسمنت مرة أخرى، أنتم وحدكم المسؤولون عن وصول أياكم لهذه الحالة.

أعلم أن الأبناء قد لا يعيشون في جلباب أبيهم، لكن كيف يصبحون قاتليه؟! لكن هذا ليس مهمًا. توقفت بي كل العوالم عند ذكره مصنع الأسمنت فهو وجهتي، قابلت عيناه عيناى وبهما سر دفين، أي سر هذا الذي بين البائعين وأصواتهم، بين السرقات والجيوب الفارغة، بين الأموات وصباحهم، وجراد المباني وتذكرة العشر جنيهاً وحاكم القطار؟ أي سر من الممكن أن يكون متصلاً بي هنا؟ ولماذا وقف هذا الشاب بجانبى، ولماذا ذكر مصنع الأسمنت الذي دللت عليه بصعوبة وسط البطالة التي غزت أرواحنا وسط الأيام؟

عندما تقدمت لخطبة الفتاة التي لم أحبها، سألنى والدها:

- ماذا تعمل؟

يسألنى كما اعتاد أن يسأل من هم مثلى، وهيهات أن يملك أحداً إجابة، رغم أن والد الفتاة كان بواب العمارة التي بُنيت على طراز حديث أمام عمارتنا القديمة المتهاكة، دار فى ذهنى أن أجيبه بأن أعمل معه، عنفتنى أمى على صمتى ووبختنى، فهى من كان لها الحق فى ذلك، فقد تكاثرت عليها الهموم والمسؤوليات كما تكاثرت من حولنا العمارات العالية، وانسد عنا الأمل كما سدت العمارات العالية الحديثة عنا البحر، فلم أكمل تعليمى لأننى لم أكن متفوقاً فى الدراسة، وكان هذا يغضب أمى كثيراً، فهى لا تملك من الدنيا إلا أنا بعد هروب والدى وانفصالهما، حاولت أن أخبرها أى تعليم اتلقاه وكل من حولى يتنمر علىّ بسبب عملها فى خدمة أصحاب شقق العمارات الحديثة الذين لا نعلم من أين أتوا، لكنهم فُرضوا علينا كما فُرضت علينا عماراتهم.

أخبرتني أمى أنها تعرف أحداً يعمل فى مصنع أسمنت وستكلمه بخصوصى حتى نذهب مرة أخرى إلى والد الفتاة وأجيب عن سؤاله.

أزعجنى صوت القطار، ليجعلى أفىق من شرودى، فبدأت بإلقاء التحية على الشاب الجالس بجوارى لعلى أعرف ما الذى يحكى عنه بشأن المصنع، حكيت له عن وجهتى وقصتى، فأخبرنى عن كفاح والده فى الحياة وأنه لاقى الكثير من المتاعب من أجل أن يوفر لهم ظروفاً أفضل.

هو أكبر أخوته، يذهب إلى الجامعة ويعمل صيفاً وشتاءً ليحاول أن ينأى بمسؤولياته ومصاريفه عن أبيه حتى لا يزيد الحمل عليه، فلديه أخ وأخت أصغر سنًا لا يكفون عن المطالب، ويشعرون والدهم بعجزه لكنه لم يتأخر عنهم قط، رغم أن مطالبهم لا ترتبط بضرورات الحياة، بل ترتبط برفاهية من هم في مثل أعمارهم.

اشتكى الشاب من أخوته الذين لا يعرفون كيف ضحى والدهم بنفسه حينما تمسك بالموت وقبّل أن يعمل بمصنع الأسمنت من أجل أن يعطيهم فرصة لحياة أفضل عن طريق ألف أو ألفين زيادة عن رواتب سوق العمل لأنه يؤمن بمسؤولياته تجاهها، تمسك بتلك الوظيفة وهو يرى الهلاك كل يوم ولا يتوقف عن الذهاب.

كان والده يعمل في تجارة المحاصيل، يوردها من الحقول إلى الوكالة، والعمل في التجارة ليس دائماً ولا آمناً، وجد يوماً على طرف قريتهم إعلاناً كبيراً عن فرصة عمل كبرى برواتب مجزية، التقديم متاح لحين الانتهاء من إنشاء المصنع، أقدم أهل القرية يتسابقون على التقديم دون أن يدروا ما هي طبيعة العمل، وأي حق لهم لكي يسألوا، وأي بديل ممكن حتى لا يقبلوا أو يرفضوا؟!

قيل أن هذا المصنع هو استثمار خارجي من بلد أوروبي، وقد نجحت الحكومة في جذبته من الخارج وبنائه على أرض قريتهم ليساهم في تقليل البطالة، لكن الحقيقة كانت غير ذلك، لأن صناعة الأسمنت تتسبب في الكثير من المخاطر على البيئة والعاملين فيها، والعمل فيها مثل علبة السجائر المكتوب عليها: احذرا! التدخين يدمر الصحة ويسبب الوفاة.. حتى أصيب والده بالتحجر الرئوي وأصبح يسعل مثل دقات عقارب الثواني، واشتد عليه المرض حتى فقد مناعته وتصلبت شرايينه، لم ينفعه التأمين، ولم تشفع له الأدوية، ولم يكف عن الذهاب إلى العمل حتى يلبي احتياجاتهم.

صمت الشاب قليلاً وسألني:

- أي اختيار ممكن أن تختاره؛ أن تعمل في مصنع الأسمنت وتعاني مما يعانيه أبي الآن؟ أم

تتخلى عن مسؤولياتك وتهرب مثل أبيك ليتركك أنت وأمك تواجهان الحياة وحدكما؟

بدأت أفكر، وفي أثناء ذلك، وضع يده على جيبه بسرعة خاطفة محاولاً أن ينقذ نفسه من السرقة، وانشغل هو في الشجار، وشردت أنا في القطار الذي تخيلت أنه سفينة نوح، لكنني شعرت في تلك اللحظة أنه هو نوح الذي يحاول أن ينقذني من الانصياع إلى قوانين العالم مع كل تلك المخاطر المحيطة به.

إثر اندفاع صوت القطار الذي توقف في محطة ما، قررت الخروج لتلفظني جموع البشر، محطة لا أعرفها، وبشر لا أعرفهم، لكنني سعيد بتغير وجهتي تلك المرة.

نهضة مصر

أكرم محمد

اتمشى في الصباح الباكر محاولاً أن أملأ صدري بهواء أقل تلوثاً، وأرى الحياة أقل ازدحاماً، أبدأ من شارع المشير بسيدي جابر وانتهى عند القائد إبراهيم، هذا كان قبل بناء كوبري سيدي جابر العظيم والعظيم جداً، وبعد بناء كوبري سيدي جابر العظيم والعظيم جداً، أصبحت أبدأ من نفق كليوباترا حيث حرمني الكوبري من رؤية البحر وغيرت وجهتي بسببه إلى الأبد.

وصلت إلى تمثال الأشرعة وهو عبارة عن امرأة جميلة وهي الإسكندرية، يحتضنها وحش برأس ثور وجسد مموج مثل البحر، تبدل لونه من الأبيض إلى الأصفر وتفهم كيف حدث ذلك من البول ورائحته المحيطة بالتمثال، وفي مقابله مكتبة الإسكندرية تراها حبيسة، مقيدة بحواجز حديدية تستخدمها الشرطة في الكمائن، تشعرك بالتهمة إذا أردت زيارة المكتبة، ومن الممكن أن يُحرر محضراً ضدك وتُعرض على النيابة، ويحاكمك القاضي بتهمة المعرفة والثقافة.

على مقربة ليست ببعيدة مني عربية قمامة مكتوب عليها: نهضة مصر، وشارع البحر نظيف تماماً من خلفها على غير العادة، والهواء معطرٌ برائحة اليود، وفي كايينة العربية رجالاً يبلغون الأربعون عاماً وأكثر، ينالون قسطاً من الراحة، بعد جهد مضنيّ في التنظيف وجمع القمامة، فهم عند بداية كل صباح حين يبدأون في جمع القمامة، تكون كقمامة عصور لا قمامة يوم واحد.

نظرت إلى الطريق وراقبت السيارات في محاولة مني لأعبر الشارع، وأقوم بإلقاء التحية عليهم وأشكرهم على عملهم امتناناً لهم، فهم ينظفون روحي وليس المدينة فقط.

بدأت أعبر الطريق وقد انتهوا من تناول الفطور وجمعوا الأكياس الفارغة منها وقام السائق بفرد ذراعه الطويلة خارج الشباك وطوح الأكياس في الهواء عالياً حتى سقطت بجوار عمود الكهرباء. تيبست مكاني وكادت أن تصدمني سيارة قادمة بسرعة كبيرة.

بين الماء والأرض

شيرين جمال عبد ربّه

كانت رثاءه تحاربان بقوة للتمسك بالهواء، ووجهه الذي تلون بلون السماء ومال إلى الزرقة ينذر بأن شيئاً ما يحدث. كان أحمد عند فترات ليست بالقريبة ولا البعيدة يشكو من ضيق في التنفس، ولكنه كأبي فلاح أصيل لا يشكو غدر الزمان ولا الصحة إنما يشكو جاره الذي يكيد له وأبلغ عنه عندما قرر زرع محصول الأرز، خسر محصوله هذا العام وكانت تلك أول مرة له ولم يعلم حينها بأن هناك أموراً أخرى تؤخذ في الحسبان، فقد قررت الحكومة تقييد أمر الزراعة، وتم السماح لمحافظات وأسماء بعينها بالزراعة وحدهم دون البقية لأسباب تتعلق بالحفاظ على المياه، ولم يُدرج اسم أحمد من ضمنهم لكنه أثر التجربة دون وعي منه ظناً بأن اعتماده على الري بالتنقيط سيحل الأزمة، ومع اختياره لبذور قصيرة العمر والتي تقاوم الجفاف، لم ينتبه إلى أن الخيانة قد تأتي من الأجساد القريبة منه وإن تباعدت الأنفس!

نبعت تلك الفكرة بعد ليلة يائسة عندما وجد محصوله قد أصابه مرضاً، ومع تغير المناخ الذي لم يستطع أن يتنبأ به، قرر أن يتوسع في زراعته أملاً في الاستقرار، على الرغم من طبعه غير الطموح، فقد ترك التعليم منذ الابتدائية ولم يعلم أو يتعلم شيئاً في الحياة سوى الفلاحة، ولم تكن تلك الخيبات الوحيدة التي واجهها أحمد وجهاً لوجه، وكعادته لم يدرك أبعاد المواقف ولا تأثيرها، فعند الحديث معه، لا يوجد أي تطلع لأي شيء، وبلا رأي أو تفضيل، وعندما يجلس يقوس ظهره بانحناء وكأنه يلتقط محصولاً ما، تركت أشعة الشمس علاماتها على جسده الأسمر، وبالرغم من صغر حجمه، إلا أن بنيته الجسدية توحى بأن هذا الجسد قد حمل أثقلاً منذ الصغر، وكبر بفعل الهموم وليس العمر.

ومع ذلك يعتز بأرضه ومحصوله رغم انحصار أرضه، والتي حاوطتها أسواراً من المباني الجديدة، أصبحت أرضه رقعة خضراء وسط محاولات التحول لهيئة المدن، فالأرض ليست هي الأرض والهواء لم يعد الهواء، وكأن آفة هذا العالم التغيير إلى الأسوأ.

يتذكر أحمد من بين لحظات لأخرى بأن المساحات الخضراء لا يشوبها أي شيء خارج عن الطبيعة، فتتصادم في مخيلته مشاهد عدة من تجمع القمامة وعبوات البلاستيك عند الترع أو حتى تواجدها في الشوارع بصورة دائمة حتى احتلت العالم وأصبح الأخضر زائراً مُحبباً، ويتذكر دخول المبيدات والعمليات والتعليمات الخاصة بها، لكنه كأبي فلاح أصيل لا يعنيه غدر الزمان ولا الصحة، إنما جاره الذي يكيد له والذي أبلغ عن زراعته الأرز، تلك الذكرى تسبب غصة في نفس أحمد وتوعد الثأر لنفسه عندما تحين الفرصة، وكأن الأقدار قد شاءت أن تجمع لقاء الأحبة دون أي سابق إنذار، لمحاه أحمد وهو يمشي بحماره فهجم عليه وطالته عدة ضربات، أصبحت اللطمات والضربات تتبادل بين

الاثنين بعدما ترك الأخير حمارة الذي هرب هلعاً، و تَجَمَّع حولهم جيرانهم في محاولات عدة منهم لفصل قواتهما، يصرخ أحمد باللعنات والدعاوي ويرد جاره بإنكار كل شيء.

اشتدت الرياح في المنطقة مما جعل التراب يتراقص مع أشعة الشمس فأكسب ذلك المشهد طابعاً درامياً وكأنه مشهداً في إحدى اللوحات، تَعْرِض صراع ما لا يعلم المتلقي ما وراء هذه المشادة، لم يهدأ الوضع إلا عندما تدخل شيخ مسجد القرية الذي استمر في قراءة آيات القرآن عليهم لأن الشيطان كعادته تدخل بينهما، وأثار تلك الفتنة وجَمَل من مطامع الدنيا.. وأن الآخرة هي خير وأبقى!

الرجل الذي تحول إلى شجرة

عبد الله فؤاد

أشرف على اقتلاع صف الأشجار بنفسه، هكذا جاءت التعليمات من الوزارة التي ألحق المركز بها لتصبح مجرد مديرية، وقف عبيد عبدالحى يوقع على أمر تطوير قرية القلعة القديمة.

هي ذاتها الأشجار التي أشرف على زراعتها لحماية القرية من هجوم الحشرات والقوارض، طفرة في تاريخ الزراعة في العالم تعود لليوم الذي أعلن فيه البروفيسور مراد يحيى مدير المركز الوطني للتشجير والإصلاح الزراعي عن نجاحه في تعديل هذا النوع من شجر الفيكس العادي ليجعله طارداً لكل ما يؤذي الفلاح في بدنه أو محصوله.

طفت على السطح إحدى تجارب البروفيسور العبقري، ظل يعمل عليها سبع سنوات كان وقتها مازال مديراً للمختبرات في المركز الوطني، أغلق دفتره وهرول إلى مقر المركز بالقرب من القرية. بُني المركز في قلب الريف، رفض أن يكون له حتى فرع العاصمة.

- هذا مكانه الصحيح.

هكذا كان يقول الدكتور مراد بفخر وهو ينظر إلى عملية البناء التي أصر أن تكون بالطين وليس بالخرسانة.

- إذا نجحت تجربتي ستتحول جبال هذا البلد إلى جنة خضراء.

سهر الليالي في مختبر الجمعية في الدور الأخير، وفي النهار ينزل إلى الأرض المجاورة للمركز حتى حصر النتائج، أخضع أنواع مختلفة من الصخور إلى أن توصل إلى نتيجة نهائية أثبتتها في تقريره الذي رُفع إلى رئيس الجمهورية شخصياً، عاد إلى أرشيف الجمعية القابع في الدور الثاني تحت الأرض.

لم يجد أحداً في الأرشيف بعد أن تقاعد جميع العاملين به، ألحقت مهام الأرشيف إلى إدارة المخازن ثم إليه هو شخصياً، فتش في الرفوف المُحملة بالأتربة على مدار العهود المتعاقبة، وصل أخيراً إلى ملف ضخّم مشدود الوثاق بعدة أربطة مكتوب عليه بخط مراد "المشروع القومي لزراعة الجبال والمرتفعات".

افتتح أرض الأرشيف المُغطى بطبقات الغبار وطبقة من سجاد لم يتبين لونه، في بداية الملف وجد ملفاً آخرًا أصغر كُتب عليه: مقدم من ابنكم المخلص للوطن وللثورة ولكم مشروع قومي يتوافق مع طموحاتكم وطموحاتنا لوطن حلمنا به جميعاً.

ممهّور بتوقيع الرئيس السابق شخصياً كُتب بخطه: مشروع ممتاز يوجه للجهة المختصة للدراسة والشروع في التنفيذ.

قضى ليلته بين الأوراق والذكريات، يفهم الخطوات والعقبات وطرق الحل.

العشرات من المعادلات والاحتمالات اختلطت بذكرياته عندما جاء أول يوم إلى الجمعية وتم الدفع به ليلحق في خدمات المعمل، هكذا رأى مكتب القوى العاملة أن هذا مناسب لشاب لم يكمل الثانوية العامة وبالكاد يقرأ ويكتب.

وُضع أمام الدكتور مراد -الذي استلمه كعهدة- قطعة صغيرة من المستقبل الذي حلم به فقرر تشكيلها كما يحلم.

- لا بد أن تكمل تعليمك وتدخل الجامعة.

هذا ما قاله الدكتور بعد أشهر قليلة من العمل في حزم:

- مع أول العام سأرفع مذكرة بطلبك للوزارة وتلقائياً ستجد نفسك مقيداً في صفوف الطلبة.

ثلاث سنوات يعمل ويذاكر، يشرف الدكتور بنفسه على مذاكرته، يشرح له الرياضيات والفيزياء والكيمياء حتى اللغات، أظهر عبقريته فيهم حتى أتم الثانوية العامة بمجموع محترم، وما إن أتمها حتى صدرت حزمة جديدة من القرارات الاشتراكية بمجانية التعليم الجامعي.

- ربنا يبحبك يا عبد الحي، أمامك خيارات كثيرة وكلها مجانية، اختار ما تحب.

= سأختار الزراعة، مثل حضرتك!

في هذه اللحظة تحول عبيد إلى ابن للدكتور ظل يعمل في الخدمات حتى أنهى البكالوريوس والتحق كباحث تحت إشرافه شخصياً، قرر أن يخرج البحث إلى طور التنفيذ ولكنه قرر تعديل شيء واحد، ماذا لو استبدلنا الحجارة بأقدام بشرية؟

لعشرون عاماً بعد رحيل الدكتور عن الإدارة ثم عن البلاد بقرار شأبته السياسة بقدر ما، لم يكن للمركز دور سوى قمع الأشجار لمشاريع متفاوتة، ليس للأشجار قدرة على المقاومة والرفض، لكن للبشر تلك القدرة.

- ماذا لو تحول البشري إلى شجرة؟

= بالتأكيد سيقاوم.

أحدث في قدميه من أصابعه حتى أعلى الفخذين عدة ثقوب بعد أن حبس الدماء عن ساقيه، أدخل كميات من السماد، حسب تلك الكميات بدقة مراعيًا الفرق بين أنسجة البشر والحجر، في مكان ما، وخلف مقر المركز، غرز قدميه حتى فخذه في التربة، انتظر لوقت طويل، شعر بالموت يغالزه عدة مرات لكنه لم يمت...

محاولات يائسة للتأثر

عبد الله فؤاد

هكذا دون سابق إنذار، أعلن الحاج مسعد شيخ الصيادين -الذي لم يعد شيخاً لهم سوى بالاسم فقط - في أربعين ابنه الثالث والأخير، حيث التقمته البحيرة في ليلة مقمرة، تحلق الجمع بجوار الشيخ مُنصتين لآخر ربع يُتلى عليهم من مسجل قديم معلق في السقف.

ما أن تلا المقرئ:

"يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي"

حتى حصل الجميع ضمناً على الإذن بقراءة الفاتحة، ليشق صوت الحاج مسعد الغرفة:

- أنا هترشح للانتخابات الجاية دي.

ليس الابن الأول الذي يفقده الحاج مسعد، لذلك هَمَّهمَ بعض الحضور معرضاً بعقل الرجل، الذي لا بد أنه قد تأثر بعد وفاة أبنائه الثلاثة، أو لعل عداد عمره الذي قارب على التسعين جعل الجميع يشك في الأمر.

- متجننتش، لسه فاضلي شوية منه.

قالها وهو يشير إلى رأسه، مؤكداً على صدق عزمه.

خمسون عاماً لم يتغير نمط ملابسه؛ سروال واسع الحجر يتراوح لونه من الصفرة إلى السواد حسب عدد مرات استخدامه، كنزة سوداء، مع عمامة يراعي دائماً أن تكون بيضاء، تستوي على رأس صغير ذات ملامح منحوتة، تأكلت وانصهرت بفعل الشمس والملح.

هكذا انتصب أمام العدسات التي هرعت لتلتقط هذه الفرصة التي لا تعوض، مع عنوان جذاب " صياد مجنون يريد الترشح للانتخابات النيابية". وأسوأهم نفساً سيتباكى على عقل الرجل الذي ابتلعت المياه أبنائه الثلاثة.

لكنه بدا أكثر صلابة، غالب الارتباك الذي طغى عليه عندما انهالت الأسئلة حول جدية ترشحه وأخرى حول المنافسة مع مرشح الحزب الحاكم الذي استوى على مقعده دورتين متتاليتين، لم يجيب على أي منهم، لم يستطع عقله معالجة الحدث المتطور الذي وضع فيه. أشفق عليه أحدهم ليسأله:

- يا حج مسعد أنت ناوي تترشح فعلا ولا ده كلام قلته في لحظة حزن على ولادك؟

تطلع الرجل بعينه التي يسبح الملح فيهما، يبدو الشاب في عمر ابنه الأوسط لو كان على قيد الحياة.

= مفضلش حد من عيالي عايش، خلاص ماعدش للحزن قيمة بعد الأول والثاني، لكن مفضلش إلا الخوف على عيالهم، أمانة اللي راحوا يحصلهم زي اللي حصل لأبھاتهم!

تكلم الرجل بلا حزن أو انفعال، كان في منتهى الجدية.

- ترشحك هيعملهم ايه؟!

تابع الحاج كأنه يقرأ من ورقة:

- تعرف عيالي راحوا ازاي واحد ورا الثاني! كلهم راحوا بنفس السبب، الحكومة فجأة قالت لازم نوسع البحيرة، فقولنا خير، لكنهم كركوا الخوص والهيش، خلوا البحيرة مسطحة، الخوص والهيش ده كان مصدات وبتقلل سرعة الهواء، المراكب بقت بتجري بسرعة وأي حركة تخليها تقلب بالذات المراكب الصغيرة متستحملش.

سكت وهو يطالع الوجوه التي تحاول استيعاب ما يقول، الحق أنها صعقت من كلام الرجل وقوة منطقته، فعاودوا سؤاله ثانية:

- ليه مترجعش للمسؤولين بدل ما ترشح نفسك؟

= أنا عندي ٨٥ سنة، بقالي أكثر من ٥٠ سنة بشوف مسؤولين بس عمري ما حد حقق ليا طلب! وإمعانا في جعل المشهد أكثر سخرية، انفجرت فيديوهات البث المباشر في جميع الأنحاء، ملايين من المشاهدات، أغرت أصحاب الصفحات والصحف بترك الفيديوهات، وعندما امتعضت بعض الجهات المسؤولة حاولوا حذفها لكن كان الهشيم أسرع في الاحتراق.

أصبحت صورة الرجل ذو السروال المتسخ والعمامة الملفوفة بغير نظام فوق رأسه، وسيجارة معلقة في جانب فمه، يشد بكلتا يديه شبكة لا يعرف ما تحمله له، وأخرى له وهو يشير إلى بقعة سولار بصفتها إحدى الشركات المجاورة للبحيرة.

ساعده أحد المحامين في تقديم أوراقه وساهمت جمعية مهتمة لشؤون البيئة في مصاريف الترشح، رغم ذلك لم ينتظر الحاج مسعد النتيجة ولم ينتظر أهالي المعديّة.

قال في يوم إعلان النتيجة عندما سألوه من الفائز:

- السمك يبحس بالحاجات اللي إحنا مش حاسين بيها...

حينما فقدتُ البحر

غادة الحسين

سمعتُ صوتًا يبدو مألوفًا لي يقترب مني أكثر فأكثر، إنها سلفتي نور، أعرفها من طبقة صوتها الذي يميل إلى الذكورية أكثر منها إلى الأنثوية وبها بحة أصابتها مؤخرًا من كثرة الصراخ في وجه أبنائها، قد غطي صوتها على تحيات الديوك والبط والأوز الصباحية التي توقظ الحيوانات والكُسالى، أعرفها أيضًا من رائحة ثيابها المُلطخة عادةً بالسمن والدهن الزنخ، رائحةً اختلطت برائحة مجاري الصرف الصحي بجوار البيوت فأفسدت نسيم الصباح المائل إلى البرودة الذي انتظره مع طلوع كل نهار كي تنشُّقه، وكأنني أريد إدخاله كله في جوفي وأملأ به رئتاي المتعبّة قبل أن تسخنها أشعة الشمس، وعلى كرسي بلاستيكي أبيض، بمرور الوقت صار صديقي أذهب معه بعد كل صلاة فجر وأجلس عليه وأمامي الأفدنة المليئة بالبرسيم، أرفع رأسي نحو السماء هربًا من النظر إلى أشباه مبان من الطوب الأحمر يعلوها هياكل خرسانية، تمنعني من رؤية الأفق الفاصل بين الأخضر والأزرق وطمعًا في تذكيري برؤية المالح، انتهى من هممة أذكار الصباح والتسبيح هممة خافتة غير مسموعة.

صاحت نور في وجهي ممسكة بذراعيّ، قائلةً:

- قومي يا بت يا جازية، عملتها الحجة حسنات، مصطفى وافق نروح البحر!

وفي لحظة، انتشلتني تلك الجملة من الظلام وأخذتني وركضت بي نحو النور، فتحت عيناي المتورمتين عليها، تقرر نور على ذراعي وتهزني بقوة، تريدني أن أقف ولكنني ظللت صامدة متيبسة ملتصقة على الكرسي، أنظر إليها في صمت، لم يكن سهل علي الحراك من تلقاء نفسي، لا أشعر بأي ألم، فقد فقدت الإحساس بالألم منذ ولادتي الواد أيمن في السابع عشر من عمري، ومنذ أن منعني الطبيب من الحمل بعد أيمن حفاظًا على صحتي، وحتى عندما تورم الجانب الأيسر من وجهي جراء صفعات مدوية كطلقات الرصاص كما أراها في الأفلام، لم يكن الشعور بها بنفس الدرجة التي بان أثرها على وجهي فيما بعد...

لم اتعمد حينها أن أنعت مصطفى بابن البهيمة بعدما تجهم وجهه وزمجر قائلاً: "انت عايزة تتفسحي ولا تاكلي!"، كان هذا عندما طلبت منه أن نمضي بضعة أيام بالقرب من بحر الإسكندرية خلال الإجازة الصيفية قبل أن يبدأ العام الدراسي الجديد -من أجل نفسية أيمن- فهو لم ير البحر منذ ولادته، وهو الآن في السابع من عمره فمتى سيرى البحر، ومتى سأراه أنا فقد اعتدت الذهاب إليه في صيف كل عام ولكنني لم أنعم برؤياه منذ سبع سنوات لأن الظرف حكم، لكنه رفض مطلبي وصاح في على غير عادته الهادئة وصوته الخفيض، فقد تغيرت أحواله في الفترة الأخيرة بعدما رأى محصول الطماطم يهجم عليه السوس ويحول لونه الأخضر إلى الأسود، وهاجمت الأفكار عقله كالسوس فبدلت حاله، كيف سينقضي هذا العام وهو خاسر ما يزيد عن خمسة وثلاثين ألف جنيه لإنتاج المحصول الذي ضاع عليه، وضاع ربحه، فأسعار البذور والسماذ وشراء المبيدات تكبده الكثير من المال مقارنة ببيع المحاصيل الزراعية تلك الأيام، لكنه لن يترك الأرض، كيف سيتركها وهي ميراث أبيه وأجداده، لا يعرف غيرها، ربما ما حدث جزاءً لسماعه كلام امرأته بعدم رحيله لمصر كي يحصل على عمل في

المقاولات، أو هي إرادة الله، ثم أأتي أنا لأطالبه بفسحة وأعكنن عليه عيشته، أيعقل هذا؟!، عليه العوض ومنه العوض، ليس معقولاً أبداً يا جازية أن تنعتيه بابن البهيمة لمجرد أنه أوضح لك أن أهم شيء بالنسبة له هو الأكل والنوم والقيام بعمله كي تردي عليه بأن ذلك لا يفرقه عن البهائم، غلطانة يا جازية، ولكن هذا الحديث قد فات أوانه.

الساعة التاسعة مساءً يوم الخميس، موعد سهرتنا الأسبوعية، الأبواب والشبابيك الخشبية مُحكمة الغلق، والناسُ نيام، والسرير النحاسي يصرر ولكن سبب الصرير مختلف هذه المرة ليس ككل خميس.

طُرق باب الغرفة بقوة، سمعتُ خلفه صوتاً عجوزاً ينادي على مصطفى أثناء ضربي، "كفاية يا ولا، البت هتموت في إيدك!"

وقتها كف مصطفى عن ضربي وذهب ليفتح الباب الخشبي مُقبضاً عليه من الأعلى، تقع الورقة التي تساعد على إحكام غلقه وصرير الباب الذي يقشعر بدني في كل مرة يفتح ويغلق فيها يؤلم لثتي.

عدلت جلستي ولملمت ثوبي لأستر عوراتي، دخلت علينا جدة مصطفى، الحاجة حسنة، سيدة شارفت على العقد التاسع من عمرها، يعمل لها الجميع ألف حساب، نحيلة القَد، اعتقد أن قامتها تقصر عند كل صباح، مرتدية الجلالية السوداء والطرحة تغطي معظم رأسها، بالكاد استطيع أن أرى ملامح وجهها حيث تحتلها خطوط وتجاعيد الزمن فلا أرى حتى لون عينيها.

جلست أمامي على الكنبه الإسطنبولي المغطاة بنقوش من الورد وردية اللون، واسندت كلتا راحتيها على المسندين واحدة على يمينها والأخرى على شمالها،

خفضت رأسها ونظرت إلى الحصر تستمع بصعوبة لرواية مصطفى، ثم رفعت رأسها فجأة ونظرت إليَّ في ذهول عند سماع السُّبة، فطلبت مني قول روايتي كي تحكم بيننا، ولكنها قطعت حديثي وقالت بصوت أحسستُ فيه بنبرة تأنيب لسببي ابنتها المتوفاة:

- طول عمرنا يا بت يا فاطنة قاعدين هنا وبنقول الحمدلله، أمي -الله يرحمها- عمرها ما شافت البحر إلا مرة في حياتها، وأنا كل ما ربنا بيكرمنا بنروح وهم كام مرة مش أكثر من أصابع اليدين، إيه الجديد دا بقي! كل واحدة تزهرق، عايزة تسحب جوزها يروحوا البحر، أنت مش حاسة بالنصيبة اللي جوزك فيها دي ولا إيه؟!

أردت أن أشرح لها أنني لم استنشق هواء البحر منذ أن تزوجت حفيدها، لم أنعم بلمس المياه، والجلوس على الرمال، حيث أشاهد السقوط المتباطئ للشمس ساعة المغرب، ينقسم قرصها إلى نصفين، نصف في أعلى الأفق الفاصل بين السماء والبحر والنصف الآخر ينزل بتريث إلى البحر حتى يبتلعه تماماً.

أحسستُ من نظراتها بتعاطف مخفيٍّ لكنها لم ترد عليَّ بجملة تطيب خاطري أو حتى تطيب خاطر مصطفى، طلبت منا أن ننام جميعاً وفي الصباح رباح، لكنني لم أنم تلك الليلة، استلقيت وحدي على

السريـر بينـما كان مصطفى خارج الغرفة، انتظرت بشوق لسماع أذان الفجر، قمتُ وفتحتُ باب الغرفة لأتوضأ وأصلي، وجدتُ باب غرفة الجدة حسناً موارباً يشع ضوءاً منخفض كلمبات السهاري، يصدر منه أصوات متممة لم استطع استراق السمع لها، ولم يكن عندي الفضول لذلك، فمضيتُ إلى الحمام، ثم ذهبت مع صديقي -الكرسي- إلى مكاننا المفضل.

في صباح أول جمعة من الأسبوع التالي، جمعنا ما يمكن جمعه لقضاء أسبوعٍ في حي سيدي بشر بحري، نزلنا من التمنية الحمراء الخاصة بزواج أخت زوجي قبلي السكة الحديدية، عبرنا الطريق للبحر وقدماي لا تحملاني، بل تطير بي نحو الشاطئ، يشتد الزحام من حولي فلا مكان لموطئ قدم، نقف على الجزيرة الفاصلة بين حارات الذهاب والإياب حاملةً حقيبة سفر وكأن عزال البيت كله بداخلها، تزعجني كلاكسات السيارات، وتخفقني عوادمها، وسرعتها تثير فزعي في أثناء محاولتنا العبور، لا انتبه للبحر بقدر انتباهي أن نحاول جميعنا الوصول إليه بسلام.

واذ فجأة تصيح نور: إيه دا؟! هو البحر فين؟!

تطلعتُ لرؤية البحر ولكني لم أجد الشاطئ الذي اعتدنا على ذهابه زمان، لا شيء ظاهر عدا سور خشبي عال مغطى بلافتة بلاستيكية بيضاء اللون عليها إعلان مكتوب بلغة أجنبية لا أعرف معناه ولكننا أدركنا أنه لا يمكننا الدخول إليه من قبل فرد الأمن الواقف على البوابة.

امتلأني غضباً وغيظاً مكتوماً، وشعرتُ بنغزة في صدري وأصابني طنين في آذاني، وهاجمني صداد شديد لا أعلم هل هو من شدة الزحام أم من صوت السيارات أم ماذا!

توقف العالم من حولي عن الحركة، وعُدْتُ إلى الظلام مرة أخرى، لا أرى ولا أسمع شيئاً سوى صدى جملة نور، هو البحر فين؟! البحر فين؟!

عيسى الكانز

غادة الحسين

الساعة السابعة صباحًا، في شارع جانبي من حي متوسط، وخلف مدرسة عام للإعدادية بنات، تتعالى أصوات ضحكات الفتيات مرتديات الزى المدرسي، حيث يتسكن معًا حول المدرسة قبل دخولهن البوابة الرئيسية، يتبادلان أطراف الحديث، ويشربن المياه الغازية، ويأكلن رقائق الشيبس والبسكويت، فالوقت ما زال مبكرًا على الدخول للمدرسة وحضور الطابور الصباحي، فاستمرت الطالبات بإزعاج بعض من القطط والكلاب الذين مازالوا نائمين على السيارات الملاكي المكونة أمام المنازل.

يقف عيسى ساندًا على إحدى تلك السيارات، يدخل سيجارته بشره محاولا الحصول على بعض الدفء من لسعة البرد الشتوية التي تشتد برودتها في الصباح قبل أن تدفئها أشعة الشمس، واضعًا يده اليسرى على كتفه الأيمن وقابضًا عليها ويحمل بيده اليمنى السيجارة ويسند وجنته على إبهامه، مشغولا بالتفكير حول كيفية إيجاد عمل آخر له بعد أن وقع من الطابق الثاني أثناء تأدية عمله كمحار مبان في إحدى منتجعات الساحل الشمالي، ورغم نجاته من تلك الحادثة، إلا أنه لن يستطيع العمل مرة أخرى لإصابته بعاهة مستديمة في ساقه منعه من العمل في هذا المجال.

أخذت إحدى الفتيات علب الكانز وأكياس الشيبس من أصدقائها، ووضعتها في كيس بلاستيكي أزرق شفاف، وألقت بالكيس بجوار مقلب القمامة الواقع خلف المدرسة وبالقرب من السيارة التي يقف عندها عيسى، انتبه عيسى لصوت رمي الكيس، واتجه نحوه، لينظر لما بداخله، تلفت يميني ويسرى للتأكد من أن لا أحدًا يراه، وراح يفرز ما بداخل الكيس، ليأخذه وبه علب الكانز فقط وألقى ببقية القمامة ناحية المقلب، وذهب للمقلب محاولا البحث عن عدد أكبر من علب الكانز ليعرضها للبيع للمعلم علاء، تاجر القمامة في منطقته.

- إيه يا عمنا؟! سرحان في إيه؟

استرعى حمادة السفروت انتباه عيسى بتلك الجملة حين وجده شارد الذهن، ليناوله كأس الشاي وسيجارة كي يجلسا ويتشاركا الحديث عن كرة القدم والنسوان الحلوة وأخبار القمامة في المناطق الأخرى.

يجلس عيسى إبراهيم على مقعد مخملي قديم مُزين بنقوش قرمزية وذهبية اللون، شاب ثلاثيني، متوسط القامة والبنية، يملأ شعره المجعد رأسه وذقنه بشكل غير مرتب، شدة سماره تجعلك تتسأل هل هذا هو لون جلده بالفعل، أم أنه متسخ وبحاجة إلى الاستحمام، عروق يديه وأذرع بارزة بسبب طبيعة عمله السابق في المقاولات وملامحه حادة جذابة، ماذا لو نظف نفسه واهتم بشكله واستخدم منتجات للعناية ببشرته وشعره، كان من الممكن أن يصبح وجهه إعلاني وسيم أو ممثل مثير لولا حالته المادية، يرتدي تي شيرت بلا أكمام قرمزي مرقع وبنطال جينز أسود لونه من الوسخ وكثرة الاستخدام، حول وسطه حزام جلد طبيعي من ماركة شهيرة لا يعرف نطق اسمها، لكنه متأكد من قيمته وجودته، فهو متعلم خريج دبلوم صناعي، يملك قدرًا عاليًا من الذكاء والنباهة لكنه لم يستطع أن يعمل بشهادته.

كان يأمل أن يلتحق بكلية الهندسة بعد دراسته، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، يقوده ذكاؤه عادة لشروذ ذهنه فلا ينتبه لما حوله ولمن حوله، يجلس بجانبه على مقعد قديم أخضر اللون صديقه حمادة السفروت، الذي لا يأمن له بسهولة لادعائه الغلب دائماً وشكواه المستمرة وكثرة شربه وسكره، لامحاً فيه طمعه وغيرته المدفونة منه وسط كلماته المعسولة وصداقته الزائفة، ولكن لا خيار له في صحبته فالمصلحة بينهما تحكّم فهو شريكه في المهنة وحارس منطقته ولم يغدر به بعد، يحبذان دوماً الجلوس على عرشي مملكتهم وحولهما ثروتهما الضخمة من القمامة، وصيبيانهم يفرزون المخلفات بأيديهم العارية غير عابئين بقذارة ما يمسكونه ولا برائحة المكان فقد ألفوها وتعودوا على إيجاد قرف الدنيا فيها.

حكى عيسى لحمادة عما كان يفكر فيه وقتها، عن أول مرة حاول أن يشحذ فيها بعد فقدان عمله كمحار مبان، وكيف أن الباشمهندس أحمد -الله يمسيه بالخير- أثار انتباهه عندما صادفه في الشارع أثناء محاولته الشحاذة إلى الاتجاه نحو جمع وفصل القمامة بدلاً من الحوجة، وقد دلّه وعرفّه على تاجر قمامة يدعى المعلم علاء الذي يملك مخزناً في الشارع الخلفي من المنطقة، فيبيع جواني القمامة البلاستيكية للمصانع كي يتم تكسيورها وإعادة تدويرها، وعن أول مرة جمع القمامة وقام ببيعها للمعلم، وقد تخصص لاحقاً في جمع علب الصفيح والكانز وبيعها لذلك لُقّب بعيسى الكانز، وكيف كان سريعاً شاطراً يجوب الشوارع طوال اليوم كي يجمع ما يقدر عليه ليعرضها للبيع مرة أو مرتين بالأسبوع، ومواجهته لكل أشكال الافتراء والاحتقار، فكان يرى نظرات الازدراء من المارة، واعتراض البلطجية المنافسين له في المهنة، حتى كلاب الحراسة ترفضه عند مروره بجانب أي جراج أو مبنى، ورفض زوجته وأبنائه له لشعورهم بالعار من مهنته غير أن عند إعطائهم المال يعظمونه ويضطرون إلى احتضانه متحمّلين رائحته، هنا فقط تتحول رائحة البيض المتعفن والكلب الميت إلى عطور ربيع الشام، وعلى النقيض كان يرى كيف أوّاه وحماه المعلم لنباهته وتجنبه الشرب والسكر غير حال بقية السريحين، وكيف اعتبره مثل ابنه فهو لم يرزق بذكور يعينوه على الشغلانة، وعن أول مرة ابتاع فيها عربة كارو وبعدها أكرمه الله فباعها واشترى دراجة نارية بصندوق خلفي صغير (تروسيكل) زرقاء، وكيف تطور حاله وصار معلماً بعدما تشرب أصول الشغلانة واستطاع فتح قنوات اتصال مع مصانع أخرى وتعرف على حمادة السفروت وكيف ساعده حمادة في السيطرة على منطقته التي لن يجروء أحداً آخر على السطو عليها، وعن شراءه مخزن المعلم علاء بعدما عرضه للبيع حيث وجد مصدر رزق آخر في منطقة راقية، فالأحياء الراقية تعني قمامة راقية على حد قوله.

عم الصمت لبرهة وقام حمادة ليرى مصلحته وظل عيسى قاعداً، قرص عيسى على فلتر السيجارة وتحسس كأس الشاي بعقل أصابعه للتأكد من أنه حان وقت شربه، فهو يحبه بارداً قليلاً، ثم أمسك هاتفه الذكي لمشاهدة الفيديوهات على تطبيق اليوتيوب بجودة ضعيفة خوفاً من انتهاء الباقة سريعاً، فتلك الفيديوهات هي الشئ الوحيد الذي يسليه في هذا العالم، حتى ظهر له فيديو عشوائي على إحدى قنوات الصحافة الإلكترونية، كان تقريراً تحت عنوان: المنظومة الجديدة تقضي على ظاهرة النباشين وتمنع تراكم القمامة في الشوارع.

ابتسم عيسى ابتسامة جانبية مستهزئة، رفع حاجبيه وقال مستنكراً:

- ظاهرة، احنا بقينا ظاهرة! وتراكم قمامة إيه دي اللي هتتمنع!

وضحك ساخرًا، ليس بغريب حصول هذا الفيديو على نسب مشاهدات ضئيلة، فبجانب عدم صداقته
—من وجهة نظره طبعًا—، لا ينتبه أحد بالعادة إلى هذا النوع من تلك القضايا، ولم يكمل مشاهدة
الفيديو ثم غيره بفيديو مُجمع عن أحوال لاعب كرة قدم شهير وأشعل سيجارة أخرى.
ولكنه رغم ذلك، شرد ذهنه وأسند وجنته على إبهامه فقد راودته هواجس عما سيحدث له إذا تم
تفعيل تلك المنظومة وتم بالفعل القضاء على مهنته، ماذا سيكون مصيره، وكيف سيصرف على زوجته
وأبنائه الثلاثة، وكيف سيجد عملاً آخر؟!

إِظْلَام تَدْرِيجِي

غِيدَاء خَالِد

في الظلام، لا نرى غير السواد من حولنا، ينزاح الظلام تدريجياً إثر مdahمة صوت غريب في الخارج لأذن عبدالمنعم، فخرج سريعاً ليتفقد مزرعته، يشعر بروحه تخرج من مكانها فجأة، يمسك في تلك اللحظة بقلبه معتصراً قميصه كرد فعل تلقائي لما رآه.

كل ما بناه يضيع أمام عينيه، كل جهده الفترة الماضية في زراعة مزرعته والعناية بها وبحيواناتها ذهب خلال ساعات.

يركض بقدميه العاريتين مسرعاً ليلحق ما تبقى، يركض صارخاً على الرجال الغائسين في تربته، ملطخين ثيابهم المدنية ببقايا تربة أرضه المغصوبة.

- لماذا تفعلون ذلك بأرضي؟!

قالها وهو يغلي من الداخل، قوبلت تلك الطاقة العالية بسيل من اللامبالاة من الرجال الغرباء، فهم حتى لم يلتفتوا إليه.

قابل المسؤول عن الأراضي ببلدته وأخبره أن المزرعة صُودرت من الدولة، وسوف يكون مكانها شيئاً أفضل، وأنهم أخبروا والده من قبل، لكنه رفض التعاون فكان لابد من التحرك.

ظل عبدالمنعم عاكفاً على أرضه ليعايش آخر لحظاتها، مسترجعاً ذكريات طفولته مع دموع عينيه، كل أحلامه التي أعدها لمستقبله تطايرت مع أعشاب مزرعته وثمارها.

فتى يبلغ العشرين من العمر، كان يتطلع لحصاد العام، وكيف سوف يتفاخر بما أنتجه وعنايته بأرضه أمام حبيبته المستقبلية، ولكن.. ماذا تبقى له؟

أشرقت الشمس على وجه عبدالمنعم الأسمر المليء بالحزن والقهر، وجه تعتليه تجاعيد الجبهة المبكرة، يرتدي ثياباً رثة، فهو لم يهتم يوماً بالثياب، كل ما كان يهتم به هو أرضه ومواشيه، تمتلئ أظافره ببقايا تربة أرضه ويعلو التراب قدميه، كل من عرفه يرى آثار حبه للزراعة ظاهرة عليه، فحينما يضطر إلى الخروج من مزرعته للمدينة، فإنه لا يبيت ليلة واحدة بعيدة عنها، لم تنجح المدينة في خداعه بأنوارها الزائفة ووعودها وطموحها القاتل لتجعله يترك أصله وجذوره.

سطع الغروب على مزرعته المتهدمة، والسيارات حولها تُحيط بها كالسلك الشائك لا يستطيع عبدالمنعم تخطيها ليدخل إليها كعادته، يتفقد ثمارها وأعشابها من الحشرات الضارة ليرى ما الدواء الذي تحتاجه في ذلك الموسم.

مرَّ عام على تلك الحادثة، يقف الآن عبدالمنعم يروي ما استطاع أن يحميه من مزرعته، قطعة صغيرة من الأرض، و لكنها الآن كل ما يربطه بأرضه وذكرياته، يزرع فيها البرسيم بأزهاره البيضاء الجميلة، ويصنع منها تجارة يلبي بها احتياجاته.

كانت أرضه هي حياته، فهو لم يكمل دراسته بعد الإعدادية، فلم يجد لها طائلاً، فكل ما يحتاجه ويحبه أمام عينيه، رحل والده بعد الحادثة بعدة أشهر، لم يتحمل ما تحمله عبدالمنعم كل يوم في حياته منذ تلك الحادثة، ولم يتبقَ له أي فرد في عائلته الصغيرة.

لم يكن يعلم ماذا سوف يحدث عندما يُطال أرضه الصغيرة ما طال باقيها في الماضي من غصب، هل ينتقل للعيش في المدينة؟ أم ينتقل إلى مزارع أخرى ليمتهن مهنته لربما يجد الألفة التي كان يجدها في الماضي؟، أم الحل في السفر بعيداً عن بلدته بالخارج، ليتخلص من كل ما يربطه بألمه، فالبلدان الأخرى تعطي أهمية أكبر للزراعة والمزارعين.

توقف عن التفكير في المستقبل، وعزف عن الزواج فهو لا يجد الأساس الذي يبني عليه العائلة، وصار كل ما تبقى من تفكيره هو القلق و الخوف من أن يتبخر ما تبقى له من أرضه.

مرت سنوات استطاع فيها أن يحمي أرضه الصغيرة، ويبدأ يومه صباحاً في منزله الصغير القريب من أرضه الصغيرة، يصنع الشاي ويذهب ليجلس على أطراف الأرض، ينظر مبتسماً لزرعه كأنه طفله الذي رفض أن يأتي به لهذا العالم.

في السنة الخامسة والأربعين من عمره، أتى مسؤول زراعي جديد، سمع أنه من الرجال الذين يهتمون بحقوق المزارعين، وأنه يسعى ليعيد الأراضي المسلوقة لأصحابها، أو يعطيهم التعويض العادل الذي يمكنهم من شراء أرض كالتى انتزعت من أيديهم.

عندما رآه شعر بالسعادة تملأ قلبه، رجل لا تفارق الابتسامة وجهه، وقوته وسلطته لا تضاهي أي شخص رآه من قبل، جلس يستمع للإجراءات المتبعة وهو منبهز.

في اليوم التالي وفي طريقه إلى المسؤول ليكمل الأعمال الورقية، رأى عبدالمنعم شجرة التوت بجانب مزرعة أحد المزارعين التي بقيت بعيدة عن أيادي المغتصبين، فتذكر والده عندما كان يجهز لزراعتها قبل موته، شجرة فارعة يتدلى من فروعها دلايات بيضاء وسوداء.

كان وجه أبيه يتوهج كلما كان يفكر في زراعة شيئاً جديداً.

عندما توفي والده وصودرت أرضه، لم يفكر أبداً عبدالمنعم في زراعة شيئاً جديداً، فالأرض صغيرة، وهو تعود على زراعة البرسيم فلم تأتِ الفكرة في خياله وقتها، وبقي يفكر في كيفية حماية المتبقي واستعادة ما ضاع منها عوضاً عن خلق شيء جديد.

اختنق فجأة ليشعر بتسرب الأمل من بين يديه، قرر فجأة ألا يذهب إلى المسؤول، فزمن استعادة الحق المسلوب قد ولى، ولم يتبقَ لديه أي وقت ليتغذى على الأمل الزائف.

تحت سواد الليل

غيداء خالد

تخترقه نظراتهم من وراء ظهره، نظرات تحرق الوجه والقلب، تزيد من ندمه الذي يؤرقه كل يوم، عندما يأخذ أدواته للصيد ليلاً متحدياً كل الظروف المعادية، من رياح ومياه تغرق الجسد وتغمره بالبرد طوال الليل، لا يمكنه أن يصطاد تحت دفء الشمس، لأنه يستخدم طرقاً تتنافى مع القانون وتتعدى على قانون الصيادين أيضاً.

ذلك هو ما رآه حلاً، عندما وصل إلى مقتبل العمر خريجاً من كلية مرموقة، يبحث عن وظائف في المدينة ولا شيئاً يناسبه، لا يجد ما يكفي لاستئجار شقة متواضعة، أو ما يكفي لتجهيز حياة مع حبيبته التي أحبها منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها، كانت تساعد والدتها على تنظيف أدوات صيد والدها استعداداً لرحلة الصيد.

لم يجد وظيفة تغنيه عن الصيد فذلك كل ما يعرفه، ولم يجد في الطرق التقليدية للصيد ما يجعله يصل إلى المال الذي يغنيه في أسرع وقت، ليضطر إلى استخدام المعدات الأخرى الحديثة، هو يعلم أنها ليست الوسيلة الأفضل، ولكنها هي ما يبرع فيها.

يعلم أنهم يتحدثون عنه من وراءه، يشعرون أنه يأخذ من رزقهم ولا يحبونه ولا يجتمعون معه في نفس المكان، ينبذه مجتمعه الذي لا يعرف غيره.

بعد سنوات اتجه لمنزل والد حبيبته، كي يطلبها للزواج بعد وقت طويل من العمل وجمع المال اللازم لزوجها، ذهب و قدماه تتأقلاق قلقاً من رد فعل والدها الصياد؛ فهو في أواخر الخمسينات من عمره، وهو أحد الصيادين القدامى في قريتهم، رجل ذو كلمة مسموعة، وشخصية قوية لا يستطيع أحداً أن يعصي أوامره، ودائماً يسعى لأن يحل مشاكل القرية وناسها، وخاصة مشاكل الصيادين، بما لديه من خبرة قد تبدو قليلة ولكنها كبيرة في مهنة الصيد.

يهمس لنفسه طوال الطريق؛ نحن فقط من نصطاد ليلاً، نختبئ في سواد الليل، لكننا نعلم أنهم يعرفون بأمرنا.

- تُرى هل سيقبل بي!

لطالما تجنب الاصطدام بوالد حبيبته، حاول ألا يكون عداوة واضحة معه، ينجز أموره ويبيع بالمدينة بعيداً عن أماكن بيعهم، تجنباً للمشاكل والحديث الدائم عنه وعن غيره من صيادي الليل.

تهياً خصيصاً لهذا اليوم، يشعر أنه غير مرتاح في البذلة الرسمية الأنيقة، فثياب الصيد تشعره بالراحة وحرية الحركة والتميز عن بقية سكان المدينة.

ساعة واحدة كانت كفيلة لتحويل مشاعر قلقه.. إلى خوف.. إلى حزن وكآبة، فوالد حبيبته قد رفض طلبه، وأخبره بصوت هادئ أن ما يفعله كعمل يومي كل ليلة، هو خيانة لأبناء قريته وكبارها، رغم أنه لن يبلغ عنه لأنه واحد من أبناء قريتهم، لكنه لن يوافق على خُطبته ابنته، وتمنى له مستقبلاً جيداً ومراجعة نفسه وحياته.

تحرك بعد لقائه ذاك إلى شاطئ اعتاد زيارته حينما كان صغيراً، به بقايا قلعة بجانب الشاطئ، تتكون من صخور تمتلئ بالرمال، تحوم حولها الطيور وتطير داخل ما تبقى من نوافذها.

سرح بخياله في المكان، فطالما أراد أن يتنزه مع أطفاله في ذلك المكان كما كان يفعل وهو صغير، رمال ورائحة البحر التي تنعش الرئتين وزهور بيضاء صغيرة يراها في أماكن قليلة وأعشاب طويلة حول رمال القلعة.

بقايا البلاستيك في الرمال، تلوث الصورة التي يحلم بها والمصنع المجاور للمياه يمنعه من المشي حافي القدمين أو السباحة في مياهها خوفاً من المجهول، وخوفاً مما قد يتسبب به المصنع من تلوث للمياه، فهو لا يعلم ما قد يحدث له إن لمس الماء جسده.

صوت الغراب يخرج من شروده، ويعيده إلى الواقع الذي كان يحاول أن يهرب منه، سلم بما حدث، وخلع بذلته على الرمال، ثم غاص فيها بقدميه العاريتين.

غروب

محمود قاسم

استقرت هاجر على ركبتيها وهي تراقب الأنفاس الأخيرة المحمومة، يحيط الاستسلام أطرافها، في عينيها غيوم مكتومة، لاحظت بشكل عابر أن الهواء أصبح له لون.. لون رمادي داكن يطوف بهذه البقعة الجنائزية، ربما فقدت هاجر الكثيرين على مدار سنواتها الثلاثون، أصدقاء فارقوها وفارقوا الحياة في عمر صغير، فاجأتها أمها بتدهور جهازها التنفسي في آخر عمرها، وهي التي كانت كالبنيان المنيع يبهت أمامها أعتى الرجال وأشدهم صلابة، لكن نفدت قواها دون أي مؤشر مُسبق وفاجأت ابنتها برحيلها السريع دون أن تدع لها أية حيلة أو رجاء في إنقاذها، لم يهجر هاجر شبح الفراق، ليفارقها أيضاً زوجها جمال للسفر بعيداً، ابن عمها وصديق طفولتها المتبقي، نشأوا معاً في بيئة ريفية اكتسبت منها هاجر حب الطبيعة وتحمّل المشقة والتأمل العميق، وورثت منها المثابرة والارتباط بالأرض، حيث نشأ جمال في عائلة تمتلك أرضاً زراعية هائلة كان يقوم على رعايتها ليساعد والده ووالدته، لكن في سن العشرين -بعد أن تزوج من هاجر ابنة عمه والفتاة الوحيدة في حياته- بدأ يواجه مع عائلته تغيرات كانت تمثل صعوبات لهم في التأقلم ورعاية محاصيلهم، ورصد جمال هذه التغيرات قبل والده الذي يفوقه خبرة ومعرفة بأساليب الزراعة والتعامل مع المتغيرات الطارئة، حيث تغيرت مواعيد الفصول وأصبح احتياج الأرض إلى المبيدات في ازدياد دائم، وهذا له تأثير سلبي على جودة المحاصيل وكميتها.

وفي هذه الأثناء، كانت تُعاني هاجر من أزمة لم تتوقع حدوثها يوماً وهي الحرمان من الإنجاب، لم يمن الله عليهما بأي طفل بعد خمسة أعوام من زواجهما، ولم يملّوا من الانتظار أبداً، لكن قررت هاجر أن تُعوض حرمانها من الأطفال بالانغماس في تربية الدواجن وتعتبرهم أطفالاً لها.

كانت الدواجن أمام أعين هاجر منذ طفولتها، حيث -كما جرت العادة في الأرياف- لم يخلُ بيت من عشة صغيرة لتربية الدواجن أو البط أو أي نوع من الطيور بهدف بيعها عند نضوجها، أو الانتفاع الشخصي منها بذبحها وتقديمها في الولائم، لكن هاجر لم ترَ دواجنها طعاماً مُستقبلياً ولم تتحمل يوماً رؤية عملية الذبح نظراً إلى العلاقة التي كانت تربطها بهذه الطيور، اعتبرت هاجر هذه الطيور أطفالها وتعويض ربها لها عن الرزق بأطفال، إلى أن جاء اليوم الذي ظهرت فيه بوادر السخط على تعابير جمال، السخط من أرضه التي ورثها عن والده وأصبحت عبئاً ثقيلاً عليه، وأصبحت متاعبها أكثر من قدرته على تحملها، حتى جلس في يومٍ على مقهى وسط مجموعة من أصدقائه بعد أداء فريضة العشاء ليسمع من صديقٍ له بالصدفة عن فرصة سفر أصحاب الحرف الزراعية إلى دولة عربية، تردد جمال واستشار زوجته عندما عاد إلى المنزل، فقابلت هاجر السؤال بتجهم ورفض متحفظ خوفاً من أن تكون هاجر عائقاً أمام فرصة جيدة لزوجها، تصارعت أفكارها بين الرفض لبقائها وحيدة وبين الإشفاق على حال جمال التائه والمستاء بسبب ما آلت إليه أوضاعهم المادية وصعوبة المعيشة

بالأخص، وهي تعرف صراعه مع أرضهم التي أصبحت من الصعب رعايتها، وَلَمَحَ جَمال تلك الحيرة على هاجر فقرر أن ينام ويترك الأمر لله.

كانت الإشارة واضحة له في صباح اليوم التالي، عندما انتشرت الأقاويل عن صدور قرار بحفر ترعة في قريتهم تمر على أرض جَمال، وبهذا تنتهي أي علاقة تربط بين جَمال وقريته، فلم يكن من جَمال إلا أنه استقبل الخبر ببرود، وذهب إلى صديقه ليؤكد له -دون الرجوع إلى هاجر- أنه مُستعد للسفر ليرشده صديقه على الإجراءات الواجب عليه القيام بها للرحيل.

كل شيء تم بسرعة لم يتخيلها جَمال وببطء لم تتوقعه هاجر، رحل جَمال وترك هاجر في أحضان دجاجاتها وحيدة شاردة تراقب أرضهما وهي تختفي وتفارقها هي أيضاً كأن حياتها انقلبت بين ليلة وضحاها رأساً على عقب.

شغلت هاجر كل وقتها برعاية الدجاج أو -كما اعتبرتهم- أطفالها، تراقبهم وتشعر بهم وتتوقع إن كان أحدهم سيمرض لتأخذ الاحتياطات اللازمة لتحمي أطفالها من أي مرض يمكن أن يصيبهم، تستيقظ كل يوم على صوت "بربري" أقدم ديك في عشتها، الديك الذي قضى وقت طويل بصحبته حتى قررت أن تمنحه اسماً كنوع من التقدير له ولبقائه معها أكبر وقت وكأنها تمنحه ترقية، لكن في يوم استيقظت هاجر على هدوء غير معتاد، "بربري" لا يصيح اليوم، وسبب هذا فزعاً لهاجر لتقوم كالممسوسة تهرول على عشتها لتطمئن على "بربري" وذهنها مشحون بتصورات مرعبة تفسيراً لهذه الظاهرة الغريبة، وبالفعل وجدت "بربري" يبدو عليه المرض وكانت هذه صدمة لهاجر التي سكنت لخبرتها ووعيها بأطفالها إلى الحد الذي جعلها من المستحيل أن يمرض أحدٌ في عشتها دون أن تتوقع هذا مسبقاً، خبرتها خانتها هذه المرة لكن مازال هناك وقت فقد قامت هاجر بالاستعانة ببعض الأدوية المضادة دون أن تلجأ لأي طبيب أو استشارة من ذوي خبرة أكثر منها، وكانت النتيجة كما أملت هاجر.. تعافى "بربري" وعاد يصيح بقوة وصحة.

مرت أعواماً على هاجر، وهي في ذات الدائرة المفرغة من رعاية الدجاج وإيجاد حلول للمشاكل التي تواجهها في رعايتهم من أمراض تصيبهم ووباء ينتشر فجأة ليحرمها من عدد كبير منهم دون رحمة بما فيهم "بربري" ليأتي ديكاً غيره وتسميه بنفس الاسم وهكذا، إلى أن جاء يوم فقدت هاجر أي أمل في قدومه.. لكنه أتى.. عاد جَمال دون أن يُعلم أي أحد.. كالهارب.. هيئته لم تتغير، لم يزد وزنه ولم ينحف، كما كانت يوم رحيله منذ خمس سنين، لكن بالرغم من هذا عندما استقبلته هاجر

عند باب البيت -كالزائر الغريب- اجتاحتها شعور بأنه ليس هو.. ليس زوجها.. هذا ليس جمال، كأن شيئاً لعيناً أصابه، وتم استبدال روحه بشبح صامت.

ألقى جمال التحية بنبرة منكسرة وردت هاجر تحيته، سيطر عليهما الصمت كأنها قرناً من الزمن إلى أن دخل جمال بيته وضع حقيبته -المختلفة عما ذهب بها- على الأرض بإهمال.. حقيبة جديدة وكبيرة مزدحمة بالمجهول، وقام بفتح نافذة الصالة وألقى بجسده المرهق على أريكة أسفل النافذة، وغرق في نوم عميق، بقيت هاجر عند باب المنزل، مذهولة عاجزة عن القيام بواجباتها تجاه زوجها العائد أخيراً بعد طول غياب، حتى فاقت من شرودها وتوجهت ناحية الحقيبة لتفتحها، وكأن هاتفاً هتف لها أن ما بداخل هذه الحقيبة خلاصة تجربة جمال في رحلته التي يبدو أنه سيتجنب أن يحكي عنها.

فتحت هاجر الحقيبة الضخمة داكنة السواد، لتجد بداخلها ملابس فاخرة تشير إلى حياة مرفهة عاشها جمال هذه الأعوام بالخارج، وتخبرها بأن هذه الحياة هي من شغلت جمال عن أن يتصل بها كل هذه المدة غير مرات تُعد على أصابع اليد الواحدة، وفي أثناء بحثها بدهاليز الحقيبة، وجدت عدة أوراق استنتجت من قرائتها أن جمال تم فصله منذ أربعة أعوام من عمله كمستشار زراعي، وورق آخر يخبرها أنه عمل في شركة بترول منذ عامين فقط، وورقة أخيرة تثبت أنه تم فصله وترحيله ولم يُذكر أي سبب للفصل، لقد قضى جمال عامين لم يجد عملاً كيف كان يأكل! أين ينام! كيف تحمّل! ولماذا تم فصله من عمله بالزراعة، جمال الذي كان خبيراً بالأرض وكل ما يخص الزراعة، كيف تم فصله! وخرجت هاجر من تساؤلاتها عندما سمعت "بربري" يصيح بصوت غريب، خرجت هاجر بسرعة لتطمئن عليه وصوت أقدامها المتسارعة أيقظت جمال ليركض خلفها مستفهماً، ليجد هاجر أمام عشتها تنظر لديك ينازع الموت ومُلقي على جانبه يتلفظ أنفاسه الأخيرة، تتكئ على ركبتيها مُدركة أنها فقدته ولم يعد بيدها أي حيلة، استقرت أعين جمال على "بربري" وتخيل للحظة أنه يبادلها النظر.

الشمس تغرب وتترك الجميع هائمين، أمامهم الموت وخلفهم أرض تحولت إلى ترعة تمحي أثرهم من الوجود وتبدد هويتهم إلى الأبد.

ما تبقى من البحر

منار رمضان

عندما تواجدت على شاطئ البحر في تلك القرية الساحلية الصغيرة، شعرت وكأنني دخلت عالمًا مختلفًا تمامًا عن العالم الذي اعتدت عليه؛ الهدوء والسكينة يختلطان بحركة الصيادين المتوجهين للصيد باكراً كل صباح ليتفقدوا عطايا البحر.

هاجر الكثير من أهل القرى مكانهم طمعاً في حصد المال، إلا أن أهل هذا المكان أيقنوا أن بيوتهم تعرف الغنى ببساطة ما تملك.

قرية ساحلية صغيرة على أطراف الاسكندرية، وُجد بها الصيادون من قبل أن تتصل راقودة بفاروس. الصيادون هنا يسيطرون على المشهد، يملكون القرية كما ملك أجدادهم طول ساحل الإسكندرية في وقت من الأوقات.

القرية تعيش في هدوء، ولكن الحياة تكمن في كل زاوية فيها؛ منازل صغيرة مقابلة للبحر ويجاور أبوابها شبك الصيد في الطرقات الضيقة، مقاهي بسيطة تستقبل الرواد وكأنه مشهد من بيت كبير مليء بالدفع والبراح.

أظهر المقهى الذي دخلناه بساطة في صنعه من أخشاب بسيطة، يبدو أنه تم جمعها بشكل عشوائي (ربما من بواقي المراكب) لتكون بمثابة مساحات لرواد الشاطئ المقابل.

كنا مجموعة من البنات المارين على الشاطئ فطلبنا من صاحب المقهى استخدام الحمام، ففتح لنا بيته بكل بساطة وكرم، تذكرت وقتها قريبتى التي سكنت منزلاً فخماً في وسط المدينة وغضبت كثيراً كلما زارها أحدهم من دون ميعاد وقالت بتأفف: "قلة ذوق!"

البيت مكون من ثلاث طوابق وأسفلهم الجزء الشتوي للمقهى. فتحت لنا الباب سيدة ناصعة البياض جميلة الوجه، ترتدي جلباباً بسيطاً وتربط رأسها بربطة الرأس الشعبية المعروفة، ظننتها زوجة صاحب المقهى حتى قالت إنها والدته، تعجبت من صغر سنها فحككت لي عن زواجها في السابعة عشر وأولادها السبعة التي أنجبتهم -على مهلها- وأبيها الذي سكن هذه القرية قبل زواجه من والدتها وكيف أنها تربت على هذا الساحل منذ صغرها، واستمرت في سرد تفاصيل جميلة عن حياة هذا البيت.

جاءت حفيدتها الصغيرة لنا بالشاي وهنا خرج الحديث من حدود البيت إلى الشاطئ المجاور لهم. على الجانب الأيسر للبيت، ترأست مداخن مصانع البترول التي ترسم أشباحاً سوداء فوق سماء البحر، بينما جاور البيت من الجهة الأخرى قلعة قديمة مهجورة تعكس أهمية وتاريخ المنطقة لا يعرف أحد أسرارها أو الأحداث التي دارت بداخلها، واحدة من سبع قلاع حربية بناها محمد علي على سواحل مصر الغربية للدفاع عنها ضد هجمات البحر، القلعة الآن مهملة وتم نسيانها فابتلعت رمال البحر المتوسط نصفها، قالت لي:

- زمان من عشرين سنة، الطابية دي كان البحر واصلها.. إنما دلوقتي البحر بَعْد من ساعة ما وسعوا رصيف المينا.

= والقهوة دي عندكم من زمان؟

- ياه.. دي كانت بتاعة جوزي -الله يرحمه- دلوقتي ابني اللي ماسكها هو وابنه.

= أحسن من الصيد ولا إيه بقي؟

- والله كل الشغل شقى يا بنتي!

تنهدت وهي تتذكر الأجرة الباهظة التي يدفعونها مع باقي أصحاب المقاهي الشعبية على طول الشاطئ للحكومة كل عام في قرية على أطراف المدينة، شاطئ يرتاده فقط عائلات الصيادين وشباب القرى المجاورة ليكون المتنفس الوحيد لهم في فصل الصيف، شاطئ بسيط ليس به خدمات، كان يوماً ما مفتوحاً لأهل القرية، السكان الأصليين، فيه من كرم وسعة أهل المكان.

أكملت كوب الشاي وشكرتها ووعدتها أنني سأتي لزيارتها مرة أخرى عن قريب، تركت البيت وعدت لمقابلة البحر وتأملت البيوت من خلفي والمداخن على يساري والطايرة على يميني، وتساءلت:

كيف للنظم الجديدة أن تأتي لتسلب حق الانتفاع ببحر الله من السكان الأصليين وضيوفهم؟ ماذا يقدم في المقابل لهم؟ أين المرافق العامة التي تضمن وقت طيب لرواد الشاطئ؟ لم لا يضح هذا المال لترميم هذه الطايرة الفريدة فتكون معلماً تاريخياً ووجهة لكل من يعشق تاريخ هذه المدينة؟ لماذا يدفع هؤلاء البسطاء ثمناً باهظاً ليروا ما تبقى من بحر أخذت بالفعل نصفه شركة بترول لا يصلهم من مالها شيء؟

نظرت إلى الجانب الأيمن من الشاطئ، وتأملت الطايرة المنسية وتساءلت:

هل هذا سيكون مصيرنا أيضاً؟ هل سيأتي وقت من الزمان وتهجر كل هؤلاء العائلات الأصلية من القرية لمشروع استثماري جديد؟ هل ستتحول قصصنا وتراثنا إلى أشباح منسية مثل تلك الطايرة التي جاءت أجيال من بعدها؟

ما دون الشمال

منار رمضان

خطوط متشابكة دقيقة تنمو على جلده داكن اللون دالة على مسقط رأسه، يسكن عم محمود جزيرة من جزر النيل الهادئة التي لم يُهجّر أهلها مثل الآخرين قبل بناء السد.

سبعة عشر ساعة من الإسكندرية حتى وصلت إليه في جنوب النيل، في رحلة أهرب فيها من أفكار متصارعة محاولةً ترميم ما دهسته المدينة في قلبي، غرفاً بسيطة أكثر راحة من بيوت مليئة بالأثاث والأجهزة الكهربائية، بيت يجتمع فيه أهله والضيوف والأحباب على مبدئين أساسيين: الحب والصفاء.

تنبّهت إلى بريدي الإلكتروني عندما وصلت إليّ دعوة ضمن الشباب المدعوين لحضور مؤتمر عالمي يجمع بين دول شمال وجنوب المتوسط. أصبح الآن حملاً عليّ أن أمثل زملائي العاملين بقطاع البيئة في مدينة قد تتحول لأطلال غارقة تحت البحر المتوسط في العقود التالية من حياة الأرض.

تقول الرسالة "مؤتمر أورو متوسطي عن التحول العادل: الفرص والتحديات".

مثير جداً أن أرى أناساً جاءوا من أقصى الشمال إلى مدينتي ليتكلموا عن جهود قام بها من هو قائم في بلادهم ليحدوا من وطء كوارث -هم المتسببون فيها- أصابت بلادنا بسنين يوسف العجاف من جفاف الأرض ونقص المياه، نظم استعمارية مستمرة إلى الآن ندفع نحن ثمن كنزهم للمال، ونحن ننتمي إلى شعوب وضعت راحة البال وسماحة النية ومصلحة الجميع قبل كل شيء.

- إيه اللي حصل يا عم محمود؟ بتصلحوا البيت ولا إيه؟

= اه والله.. حنعمل إيه؟

- وإيه اللي بهدله كده؟

= والله مانا عارف يا بنتي.. الشتا اللي فات كان شديد، والسيل شال بيوت كتير في طريقه لما صاب الجزيرة.

عائلات الجزيرة وقرى متعددة في أسوان، قد انهمرت الأمطار الكثيفة فوق رؤوسهم ودُمرت بيوتهم الريفية البسيطة إثر سيل ربيع ٢٠٢٣، بيوت براح بأحواش واسعة معجونة بطمي النيل الخصب في جزيرة تجاور المعبد لم تعرف في يوم شيء عن أمطار الشمال.

أعرف عم محمود منذ سبعة أعوام إلى الآن، لم أره فيها سوى مبتسماً ومرحّباً ويقدم ما يملكه إلى الزوار، دعانا إلى بيته في زيارتي الأولى لتعامد الشمع على وجه رمسيس الثاني بأبي سمبل، مع صديقتي، دخلتُ إلى بيته في حجرة البنات واستقبلنا في بيته الآخر بأبي سمبل حتى أشرقت الشمس واصطحبنا إلى المعبد.

استيقظت يومها على مضمض للقيام بهذه المهمة السخيفة، أنظر إلى الدعوة مرة أخرى وأتذكر ما يتم الترويج له في الإعلام بالتحضر للأخضر وعن الأموال الطائلة التي تُضخ من حكومات الشمال لنا كي يسكت هؤلاء الصغار المزعجون مثلي ومثل زملائي المطالبين بحقنا في الحماية من أزمات مناخية لم نكن يوماً السبب في حدوثها.

ارتديت جونلتي الزرقاء، وقميصي الأبيض، ودهنت كريم الأساس على وجهي، وارتديت حذائي ذا الكعب العالي كي أبدو بزي مناسب يليق بهذا الحدث ولأبدو جادة بشكل كافٍ كي أقول ما أريد أن

أقوله هناك، توجهتُ إلى قاعة المؤتمر وأطلعتُ على جدول الأعمال لأرى محاضرين أغلبهم من دول الشمال، وآخرين عرب ممن تلقوا تعليمهم أيضاً من نفس المنطقة، لم يكن هناك شيئاً مثيراً لانتباهي سوى محاضرتان تحدثان بالتوازي قبل استراحة الغداء، الأولى يُعنونها "التحول العادل والفرص التكنولوجية"، يحاضر فيها ثلاثة أساتذة من جامعات أتيننا وكوبنهاجن وتل أبيب.

كان مثيراً للسخرية أن أرى محتلاً يتكلم عن التحول العادل، ومنصة لا يتخللها ممثل لبلادنا كي يزن كفة الميزان ويقول ما نريد أن نقوله، هزل ما بعده هزل. بينما كانت المحاضرة الأخرى عن "التحول العادل في ظل الحروب" ويحاضرها أساتذة من بيروت ورام الله وآخرون من عمّان بالأردن. ابتسمتُ من جانب عيني ابتسامة ساخرة وكأنني أقول لنفسي: كنت أعلم أننا دائماً ما يجب أن نرسم مشهد تكافؤ الفرص بين مجتمعات لا يمكن المقارنة بينهم.

علمت بعدها لماذا تمت دعوتي إلى هذا المؤتمر الذي كانت الأغلبية فيه من ممثلي الحكومات وصانعي القرار فوق الخمسين قاربوا على مغادرة الحياة تاركين لنا إرث الدمار الخالف ورائهم. كانت ليلة السفر طويلة ونمتُ بعمق بمجرد أن لمست وجنتي السرير.

استيقظت على صوت العصافير النيلية المحيطة بالجزيرة، خبطت على حجرتي بنت عم محمود قائلةً: "الفطار جاهز".

بدلت ملابس النوم بجلبابي الأخضر المفضل الذي اشتريته من أسوان العام الماضي. رويت وجهي بماء النيل وفرشت أسناني، جلسنا جميعاً على طاولة أرضية لم أرها إلا في بيت جدتي من زمن بعيد خارج المنزل على هضبة عالية أمام النيل. أضع الكريم على زراعي ووجهي واتأمل كرم الشمس على هذه الأرض؛ أم معطاء تنبت سنابل القمح فيأكل الجميع منها بسخاء، فول وبطاطس وباذنجان وعيش الدكوة النوبي وعيش الشمس.

جلستُ بجانب فاطمة بنت عم محمود وبدأ الحديث معهم عن الحياة في الجزيرة وحركة البناء بالطوب الأحمر والطموح الجديد للثراء السريع، قالت فاطمة أن خطيبها كان على وشك إنهاء تجهيزات الفرع وبيتهم الجديد، فرشه فرشاً بسيطاً ولكن يليق به وبفاطمة، إلا أن سيل العام الماضي أهلك بنيان المنزل الطيني فتأجل زفافهم إلى الآن، "صحيح.. الولد مسكين.. حيجيب فلوس منين؟ لازم نصبر عليه" فسألته إذا تم تعويضه ليصلح البيت.

- ولا أي حاجة. احنا في جزيرة في آخر الدنيا، يعني منسيين.

= يعني كل شتا حيحصل نفس الموضوع؟

- باين كده، احنا لا كنا نعرف مطر ولا غيره. مش عارفين لسه حنعمل ايه؟

ضارباً كفّاً على كف، متحسراً على وقت من الزمان لم تعد الحياة متوقعة فيه.

على عكس زملائي الذين قاطعوا الجلسة الأولى لحضور ممثل لجامعة الاحتلال فيها، إلا أنني وجدت لها فرصة ذهبية لأعرف ما سوف يقال. بدأ الحوار عن التقنيات الحديثة للتأقلم على التغير المناخي، والأجهزة الحديثة لحجب مياه الأمطار غير المتوقعة، تقنيات قد تصل إلى بلادنا بعد عقود ليست

بقريية، وإن وصلت فهي لن تصل يوماً إلى رجل بسيط مثل عم محمود وبنته فاطمة، وركز الجميع أيضاً على المنح الخضراء التي تدعم الدول المتضررة لإقامة المشاريع الخرسانية الضخمة لحماية الشواطئ، ولكن لم يذكر أحداً بالطبع إن كان للسكان المحليين والمجتمعات الأصلية نصيب من التعويضات عن الضرر اللاحق بهم ولا عن مجتمعات مدنية في الضفة الغربية يمنع دخول الخلايا الشمسية ليتأقلموا مع نقص الوقود إثر نزاعات سياسية وتحكم الاحتلال في مدن الضفة.

رفعت يدي وتكلمت عن هذا، لم أتوقع أن يقول أحد منهم شيئاً يهدئ ما في صدري من غضب ولكنها أكاذيب جديدة وتزييف لحقائق نعرف جميعاً حقيقتها.

وبينما استمع إلى كل هذه الأكاذيب، يدق تليفوني وأرى رسالة من فاطمة قائلة:

- فينك؟ البيت كله بيسأل عليكى.. مش ناوية تيجي تاني قريب؟

فارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة من قلب هذه الغصة، فلم أكمل المؤتمر، وذهبتُ لإعداد حقيبتني لأترك كل هذا ورأئي كي أذهب إلى المكان الأهم و الأقرب إليّ، مكان أكثر صدقاً رغم بساطته، بيت عم محمود في أسوان.

الجميزة العجوزة

يارا وائل

كعادته كل يوم، استيقظ إبراهيم مع أذان الفجر، لكن هذه المرة استيقظ وحده دون مساعدة والده. ذهب ليغسل وجهه ويتوضأ لمصاحبة أبيه لأداء الصلاة في المسجد، فهذه عادة لم ينقطعوا عنها منذ أن استطاع إبراهيم المشي.

يبعد المسجد مسافة عشر دقائق من البيت، فهو ملاصقٌ لمدافن القرية، التي بدورها تطل على الطريق الرئيسي الذي يصل القرية بالعالم الخارجي، ولكي تصل إلى الجامع، يجب عليك أن تمشي إلى مدخل القرية فتلقي عليك شجرة الجميز العجوزة التحية، وتتمنى لك يوماً مليئاً بالبركة. بغصونها الصلبة، وجذورها الممتدة في كل مكان، تُميز القرية عن غيرها من القرى تلك الجميزة العجوزة، فالقرية بدونها كسائر القرى، مكان ريفي متواضع، لم تعد تملؤها الخضرة بكثرة مؤخراً، ومع دخول الأراضي الزراعية المناقصات ومحاولات الفلاحين المستمينة لتحويلها إلى أراضٍ مبانٍ، فإن آخر ما قد يحافظ على هذه القرية من الهلاك هو تلك الشجرة التي تظلل الطريق لكل زائر وترشده إلى وجهته، إن نظرت خلفها وخلف الطريق ستجد مجرى صغير للنيل يمد القرية باحتياجاتها الأساسية من المياه والسمك الطازج.

قبل شروق الشمس، يصعب على السائرين رؤية الطريق بوضوح، وذلك لقلة المصابيح الكهربائية أو بالأحرى انعدامها، لكن أقدام أهالي القرية تحفظ ترابها عن ظهر قلب. كان يعرف إبراهيم طريقه جيداً، فهو في الثامنة من عمره، ولا يحتاج إلى أن يمسك بيد والده ليرشده، مستمتعاً بالهدوء والسكينة ونسيم الهواء الذي يتلاعب بشعره الناعم القصير، الديوك تصيح وتعلن هي أيضاً الفجرية، إن هذا الوقت هو أكثر الأوقات قرباً لقلبه، فلا يحتاج أن يفعل أي شيء ليحصل على اهتمام والده، فهو ملك القرية وما فيها.

عادةً ما يكون إبراهيم ووالده أول الحاضرين للصلاة، ويستغل ذلك الوقت ليتحدث مع الشيخ حسن، يحكي له عما حفظه ليلة البارحة، ويطمئنه أنه صلى كل فروضه حتى ما لم يستطع قضاءه بالمسجد. ذهب إبراهيم إلى ناحية الشيخ ليقوم بالمعتاد، ولكن الشيخ كان مهموماً ومرتبكاً بعض الشيء، لم يهتم لإبراهيم ككل يوم؛ كان يتحدث مع والد إبراهيم عما حدث اليوم. لم يفهم إبراهيم نصف المحادثة، لكنه أضاف إليها عندما بدأ الشيخ بذكر الصبية الذين كانوا يلهون بجوار البحر، ولمحوا غريباً يطوف بالمكان يلتقط صوراً للجميزة العجوزة وللمساحات حولها، فقاطعهم إبراهيم:

- أيوا يابا أنا شوفته وأنا راجع من الكتاب، كان ماسك ورقة وقلم وعمال يسجل.

ومع التغيرات الكثيرة التي طرأت على القرية مؤخراً، والتي غيرت من ملامحها كثيراً كما غيرت من أحوال أهلها، صار عند الشيخ حسن هاجس من أي تغيير آخر، ونقل توجهه إلى المصلين، لم يكن يعلم إبراهيم لما يهتم الشيخ ووالده بما حدث ولكنه شعر بأن شيئاً غريباً يحدث، شيئاً يسلب الطمأنينة من قلبه ببطء.

أشرقت الشمس وغربت وأهل القرية في توجس، لكن لم يحدث شيئاً، فالأوضاع هادئة والصبية يلعبون بجوار التربة، وإبراهيم يركب دراجته ويحوم حول الجميزة العجوزة ليستظل بظلها. بعد أسبوع وإبراهيم يركب دراجته في طريقه إلى الجميزة، لاحظ المعدات الثقيلة، والكبار ذوي الملابس الرسمية، فأصابه الذعر الذي لم يكن يعلم مصدره، وأخذ يصرخ وهو في طريقه إلى البيت:

- عايزين يموتوا الجميزة، عايزين يموتوا الجميزة!

سمعه الصبية وبدأوا يجرون ويصيحون:

- عايزين يموتوا الجميزة!

فزع أهل القرية من صياح الصبية، فالجميزة التي يعتبرونها مرشدتهم وما يحمل تاريخ أجدادهم ستصبح تاريخاً منسياً مثلهم ومثل أجدادهم.

أسرع الشيخ حسن لموقع الجريمة، واقترب من المسؤول وحيّاه:

- صباح الخير يا فندم، استسمحك تفهمني ايه اللي بيحصل دا!

= ولا حاجة، الشجرة واحدة مساحة كبيرة ومحتاجين الأرض علشان نمهد الطريق.

صرخت امرأة من بين الجمع:

- تشيلوا الجميزة! وأعرف بلدي منين؟!

وفي نفس الوقت، كان يتسلق إبراهيم غصون الشجرة ويطوق الصبية جذورها، والأهالي يتشاجرون مع المسؤولين بلا نتيجة، المعدات مازالت موجودة ونية قلع جذور الشجرة لازالت حاضرة. نظر المسؤول إلى إبراهيم ونهره وهدد الصغار ليتركوا أماكنهم ولكنهم ثبتوا مكانهم، غير مدركين تأثيرهم، ظلوا ثابتين خائفين وحانقين.

حاول المسؤولون فضهم بشتى الطرق ولكن كان للصبية قول آخر، فلم يتركوا مكانهم لمدة ثلاث أيام وفي صباح اليوم الرابع، لمح إبراهيم سائق البلدوزر ككل صباح في الأيام الماضية، ولكن هذه المرة لم يحاول تهديد الصبية بل ببساطة غير اتجاهه، ترك الصبية وترك البلدة وترك الجميزة لحالها، ليستظل بها الصبية وليتعلم إبراهيم خدعاً جديدة بالدراجة حولها، ولتنادي على المعارف والأصدقاء من كل مكان وترشدهم لبيوت أحبابهم.

أين البحيرة؟

يارا وائل

الشمس لافحة دون سُحْب تهديء من سخونتها، لكن نسيم البحر يجعل الجو محتملاً بعض الشيء. اعتاد على الشمس والملح، وكانوا أصدقائه الأعزاء، ما بين المياه المالحة والمياه الحلوة رسم حياته. ورث المهنة عن أبيه وجده، كما ورث المركب والشقى.

في العقود الماضية، كان محظوظاً من هو من سلالة الصيادين، فهم أغنياء القرية، على القوم، فيطمح كل طفل وُلد هنا أن يمتن الصيد، ويلعب بالخشب والغزل ليبنى مركبه ويغزل شباهه، يسبح بالبحر ويصادق الأسماك ليتعلم أصول المهنة.

لم يكن صابر ذو الأربعين عاماً مختلفاً عنهم كثيراً، لكنه كان من المحظوظين بوراثته المهنة، وبوجوده بين المياه منذ نعومة أظافره، فكان يصطحبه والده إلى الشط منذ أن تعلم المشي، ليغرز قدميه في الرمال وتعرفه الشمس وترسم على وجهه سُمرة لا يتمتع بها إلا الصيادين، فتستقبله الرياح لمستقبل ممهد، معروف أوله وآخره.

شبك يديه الغزل وعلى رأسه قبعة متواضعة لم تفارقه يوماً منذ أن أهداه إياه جده، كاعتراف منه بأنه ابن المهنة.

عيون عسلية وشعر بني يملؤه الرمال وملامح شكلتها الشمس أكثر من الجينات، معتدل الطول، هزيل الجسد لكنه صلب كمركب أبيه، لم يغيره يوماً العالم خارج المياه والقرية، غير أن ارتياحه التام لمستقبله الموعود لم يجلب له سوى المتاعب، فلم يحسب أبداً حساب انتهاء مخزون الأسماك ونفور المتبقي منه خارج البحيرة، فلم يعد الصيد مهنة يطمح إليها أبناؤه، بل لم يعد للصيد وجود بالقرية. كان يراقب المياه وهي تتعكر يوماً بعد يوم، كما كان يشاهد طباع السمك وهي تتغير، كان يؤمن بأن الصيد رزق ومهارة، وإن ضاق رزقه يوماً فذلك بالطبع بسبب تقصيره في حق ربه، عكس الصيادين الأصغر سناً، الذين يتمتعون ببلاغة ليست ملكه، يتفوهون بكلاماً لا يهمه، فهم ينسبون تعكر المياه لقلة الإيمان.

ظل السمك يختفي تدريجياً، ويتحرك من مناطق المعتادة إلى أماكن أخرى، والصياد يشك بغضب ربه ومهاراته وتعاليم أجداده، حتى اختفى السمك تماماً من الأرجاء، تاركاً أهل دون قوت أو ذات. كان صابر غاضباً وناقماً وحائراً، فهو لا يعرف القراءة والكتابة، كان الصيد جزءاً من تكوينه، وبدونه أصبح سراب.

بعد أسابيع من اختفاء السمك، وهو جالس بين أطفاله وزوجته حول الطبلية التي يقل ما عليها كل يوم، حكى له ابنه عن شباب الصيادين الذين تغلبوا على هروب السمك بأن يهربوا هم أيضاً، فتركوا القرية ذات البحيرة المهجورة، واتجهوا نحو قرية في الغرب تسمى المعديّة، تقع على بحيرة إدكو، لا

تختلف كثيراً عن بحریتهم التي خذلتهم، عدا أن بحيرة إدكو لا تزال تحتوي على بعض الرزق والأسماك.

في المساء، جلس صابر مع صاحبه على طاولتهم المعتادة بـقهوة "البحار"، وعلى أنغام أم كلثوم، أخذ صابر يتلو على عبدالمحسن ما أخبره إياه ابنه اليوم، تحمس عبدالمحسن لما سمعه، وشجعه الأدرينالين أن يقنع صابر بالتجربة، اليد قصيرة والعين بصيرة.

ذهب صابر إلى بيته معلقاً بآمال أن يستعيد مهنته مرة أخرى بشكل مختلف ولكن سيوفر قوت يومه على الأقل، وكما اتفق الصديقان، التقيا في المسجد لصلاة الفجر، ثم انطلقا.

لم تكن المعديّة بعيدة جداً عن بلدتهما، وصلا في الصباح الباكر، واستقبلتهما رائحة الزفارة منذ أن دخلا البلدة، وتأكدًا من وجودهما في المكان الصحيح، سارا وبدأ في مراقبة الباعة والصيادين بتوجس، إنهما غريبان، يستطيع أصغر طفل هنا من نظرة واحدة أن يميزهما فزادهما ذلك الشعور رهبةً وقلقاً مما هو قادم.

بحثا عن قهوة ليحتسيا كوباً من الشاي، وليلقيا نظرة على البحيرة، اتجها ناحية المياه العذبة، وجلسا بالقرب منها، ليلقيا التحية على أهلها من الأسماك، وليستبشرا خيراً بما هو قادم لهم من رزق. وعلى الرمال الصفراء، راقبا المراكب وأبا قردان والقطط التي تحيط بهم من كل جانب.

- خربوشين شاي لو سمحت!

= أيوة جـاي!

صابر يعلم جيداً إن مفتاح هذه البلدة مع ذلك الصبي، فبجانب الصينية الفضية وأكواب المياه النصف مملوءة سيجد كل ما يحتاج معرفته عن المكان.

- اتفضلوا يا حضرات!

= بقولك -يعطيه عشرين جنيهاً- متعرفش مين هنا بياجر مركبه؟

- ولو معرفش أعرفك، عيوني علشانك.

ذهب الصبي لبضع دقائق وجاء إليهما بما ينقصهما، مركب بمعدات الصيد اللازمة والمناسبة للبحيرة. ولشعورهما الشديد بالغربة والتنافس، وخوفهما من أهالي البلدة، انتظر صابر وعبدالمحسن غروب الشمس ليبدأ رحلتهم وسط هدير المياه. حان وقت السؤال الأهم، أي الشباك سيستخدم؟ أرادا في البداية استخدام الشباك الواسعة الموجودة على المركب، فصياديو المعديّة أدري بأسماكها، ولكن بعد

التحدث لوهلة والتفكير في كمية السمك التي سيحظان بها وهل ستكون أطفالهما بعيداً عن المصاريف، وجدا أن ذلك مستحيلاً، فبتلك الطريقة سيأكل أطفالهم وجبة حسنة ويدفعا الباقي من إيجار المركب.

بحث صابر في أدواته حتى وجد شبكة ذات فتحات صغيرة، وبتلك الطريقة سيتمكن من صيد كيلوات من الأسماك والتي ستكون كافية أكل ومصاريف أسبوع قادم، وستوفر عليهما مشقة الذهاب والرجوع يومياً. لم يعيدا التفكير لوهلة أخرى، فكل منهما على علم بأن هذا صيد جائر، سيؤثر على دورة تكاثر الأسماك فيما بعد، وسيؤثر على صيادين المعديّة، ولكن ليس بيديهم شيئاً، يعلمان جيداً أن مصير هذه القرية سيكون كقريتهما، وأنهما سيتسببان بإخلاء هذه البحيرة إن استمرا بهذا الشكل، ولكن هناك أفواه تبحث عن لقمة طعام، ومصاريف وديون لا بد أن تُسدّد، فلا يحتاج ذلك القرار إلى التفكير مرتين، إن كان الاختيار بين نجاتهما الآن ونجاة الأسماك والبحيرة مستقبلاً، ف أنا ستفوز حتماً بالرهان.

رغم عودته بجيوب مثقلة بالمال ليلاً لأسرته لا ينتهي الندم داخله، يتمنى صابر لو تعود بحيرته مثلما كانت وتعود حياته القديمة دون ذلك الوحز في قلبه والذي يمنعه يومياً من الاجتماع مع أصحابه في صلاة الفجر مثلما كانوا دائماً.

البحر والمدينة

ياسمين مصطفى

- وصلنا البحر!

تغمض عينيها لتستعد لرؤية البحر، واستنشاق نسيمه المنعش، تفتح عينيها وتصيح مستنكرة:

- البحر محبوس ورا قضبان؟!!

تتسأل في تعجب:

- ماذا حدث؟ ولماذا وُضعت قضبان حديدية على كورنيش البحر؟

فهي اعتادت الذهاب إلى شاطئ البحر بصحبة عائلتها لأمها، حيث تتجمع الخالات وأولادهم ويذهبوا جميعاً لإحدى الشواطئ على أطراف المدينة في منطقة أبي قير "شاطئ برديس".

ببوابته السوداء الحديدية، تعبر البوابة لتجد كبائن المصيف مصطفة على جانبي المكان، يتوسطهم ملعب مستطيل كبير من الرمال للعب الكرة الصيفية، وفي نهاية الممر الواسع بين الكبائن، يوجد سلالم أسمنتية تؤدي إلى شاطئ البحر برماله الذهبية ومياهه الفيروزية، على الجانب الشمالي توجد الكافيتريا، بينما يوجد سور صغير من الأسلاك الشائكة الحديدية على يمين الشاطئ معلناً نهاية حدوده.

على مسافة ليست ببعيدة عن الشاطئ، توجد جزيرة صغيرة من الصخور في وسط البحر، حيث يتسابق أطفال العائلة ليسبحوا حتى يصلوا إلى الجزيرة ويصعدوا عليها بحثاً عن الكابوريا المختبئة وسط الصخور..

وقفت نسيمه على شاطئ البحر تتأمل مياهه الزرقاء، فتتلاًلأ أشعة الشمس منعكسةً على بشرتها البيضاء الصافية، وشعرها البني الذهبي يغطي ظهرها، ترتدي فستاناً قطنياً قصيراً صنعتها لها خالتها، مزيناً بورود صغيرة من الخيوط زاهية الألوان من صنع أنامل أمها الذهبية.

على وجهها ابتسامة حانية هادئة مثلها، انتبهت نسيمه لصوت والدتها تناديها لتناول الفطور قبل نزول البحر.

ذهبت نسيمه إلى مظلة الأسرة، فهي علامة مميزة على الشاطئ؛ كبيرة الحجم، خضراء اللون، محاطة بملاءة بيضاء بورود زرقاء من جانب، متصلة بملاءة زرقاء من الجانب الآخر، تحيط الملائتان المظلة مكونةً خيمة تحفظ خصوصية الأسرة، وتمنع عنهم أشعة الشمس الحارقة.

تناولوا الفطور الموضوع على ملاءة مفروشة على الرمال، وجلسوا يتابعون الشاي على السبرتاية، بينما يتحاور الخالات عما حدث داخل القطار في طريقهم إلى الشط.

اعتادت العائلة استقلال القطار في طريقهم إلى شاطئ رحلتهم التي استغرقت قرابة النصف ساعة حتى وصلوا إلى وجهتهم، كانت مليئة بالمواقف والمفارقات.

عادت بنظرها إلى القضبان الحديدية التي حبست البحر، وتذكرت مزلقان القطار الذي رأته للمرة الأولى بدون قضبان وهي في طريقها إلى الشاطئ المجاور لبيتها.

شردت غارقة في ذكريات المدينة التي تبدلت ملامحها، وتقلصت مساحاتها العامة، مختزلة معها الكثير من الذكريات، راقبت الأسر المتحركة على كورنيش البحر وهي تتحرك خلف القضبان المحيطة بالشاطئ، وأكملت طريقها إلى المنزل مثلهم بعد رحلة مخيبة للآمال.

المَرَسَى البلاستيكي

ياسمين مصطفى

تشاهد قارب الصيد يقترب من شط البحيرة، فتهم بحماس لرؤية الأسماك في الشباك، وما أن تصل إلى حافة الشاطئ، حتى تجد مرسى صنعته البحيرة، من أكوام المخلفات المتراكمة بداخلها.

المَرسى يحيط بشاطئ البحيرة وبداية حلقة السمك أو كما يطلقون عليها "المعدية"، حيث تراكمت مئات الآلاف من أكياس القمامة على الشاطئ في تناغم مع رائحة مياه الصرف الصحي الآتية من الأماكن المحيطة.

على بُعد خطوات من المرفأ البلاستيكي، يقع أول محل للأسماك بجانب معدني، مُعلق عليه شبكات الصيد الدائرية الخضراء، يليها طاولات الأسماك الخشبية محملةً بأنواع مختلفة من الأسماك، خليط من أسماك البحر وأسماك البحيرة.

يجلس بجانب الجدار المعدني رجل سبعيني، عريض البنيان على كرسي خشبي، نظره موجه نحو البحيرة وقوارب الصيد.

يرتدي جلباباً رمادياً فضفاضاً وعلى رأسه طاقية شبكية بيضاء اللون، ملامحه الخمرية الهادئة وتجاويز وجهه تحمل الكثير من ذكريات وقصص البحيرة، هادئ الطباع، حكيم، كلاماته متزنة، فهو كبير الصيادين ونقيبهم.

أشاحت وجهها بعيداً عن المَرسى البلاستيكي، وأخذت تنظر في الأرجاء، ماذا حدث للبحيرة؟ وكيف أصبح هذا المَرسى جزءاً من هوية المكان؟

يقطع أفكارها زقزقة إحدى الطيور الموجودة بكثرة على شط البحيرة، حيث وقف يغرد قريباً من الماء، مرفقاً بجناحيه، موجهاً بصره نحو الماء، كأنه يعزف أنشودة صيد الفريسة، ثم تحرك فجأةً ليلتقط بمنقاره إحدى أسماك البحيرة، وذهب بعيداً عن الأنظار.

يقطع قضبان القطار طريق الوصول إلى المعدية، ويصدر صفيراً تمهيداً لدخوله المحطة.

تذكرتُ جزيرة الشخلوبة وأجواءها وقوارب الصيادين وحلقة السمك.

تقع الجزيرة في وسط البحيرة، وعليها منزل صغير بدون سقف وبعض الأشجار الوارفة، حيث كان يستخدم قديماً كحلقة للأسماك.

يحتل السمك المشهد بين الصيادين ومريدي الحلقة، أصبح اليوم مهجوراً من الأسماك، عامراً بزوار البحيرة.

على ضفاف البحيرة مَرسى من صنع الطبيعة من نبات ورد النيل ذي الورود البنفسجية، تصطف قوارب الصيادين على شاطئ البحيرة قريباً من حلقة السمك، وذلك الفرن المبنيّ من الطوب وتفوح منه رائحة الأسماك المشوية.

تعود ببصرها إلى البحيرة، محاولة تذكر نقاط الشبه بين البحيرتين فكلاهما متشابهتان في الكثير؛ القوارب، الأسماك، الصيادين، الطيور، وهدوء الطبيعة، ولكل منهما تحديات خاصة ما بين مَرسى بلاستيكي من المخلفات وآخر من ورود النيل البنفسجية.

عاد الطائر مرة أخرى، وشيء ما عالق في منقاره، يحركه يميناً ويساراً محاولاً تبين ما الذي علق به، فيكتشف أنه التقط قطعةً من البلاستيك بدلاً من السمك، قذف الطائر القطعة من فمه ثم رحل بعيداً عن البحيرة.

شردت في مشهد ومن داخلها تمت أن يحظى الطائر بوجبة حقيقية ليست بلاستيكية.

مجموعة قصصية

تواجه مدن البحر المتوسط وجوه مختلفة من التحولات البيئية
لم يتم الإفصاح عنها بعد...
هذه المجموعة القصصية تتناول مواقف وتجارب تعرض لها
المجتمعات المهمشة في المدن الساحلية والريف.

وهي نتاج ورشة الكتابة الإبداعية لمشروع CAP'MED الذي نظمته
بانلاستيك مصر بالتعاون مع:
مؤسسة Les Têtes de l'Art
مؤسسة مجلس شباب المتوسط
الجراج الثقافي لمعهد جوته بالإسكندرية
مؤسسة آنا ليند



BANLASTIC
Ban single-use plastic